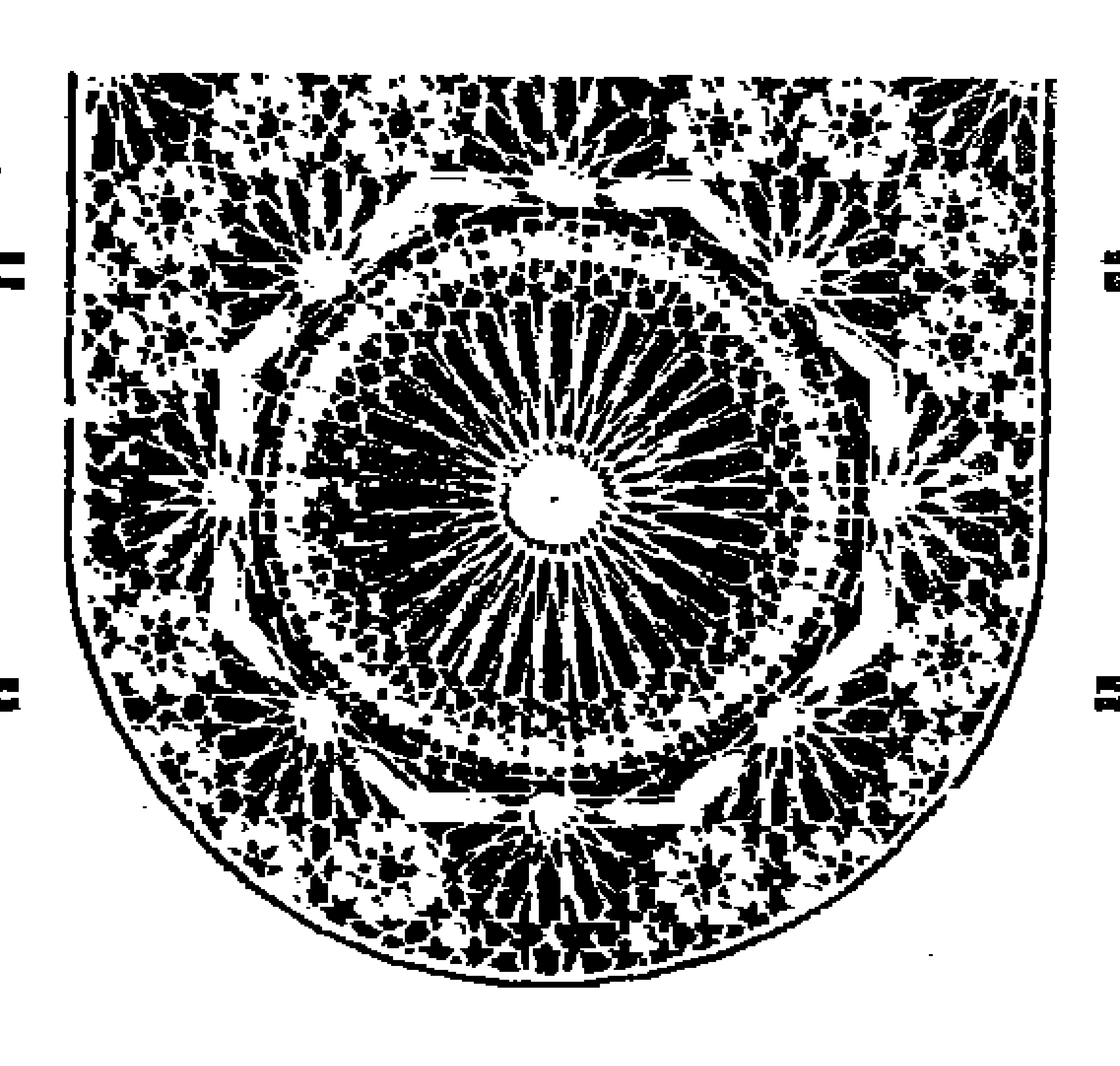


حلمي مراد يقدم كنوز كتب التراث

أوديب الملك

ومسرحيات أخرى

١٥

حلمى مراد يقدم :

من روائع المسرح العالمى

أوديب الملك

ومسرحيات أخرى

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى - الفجالة



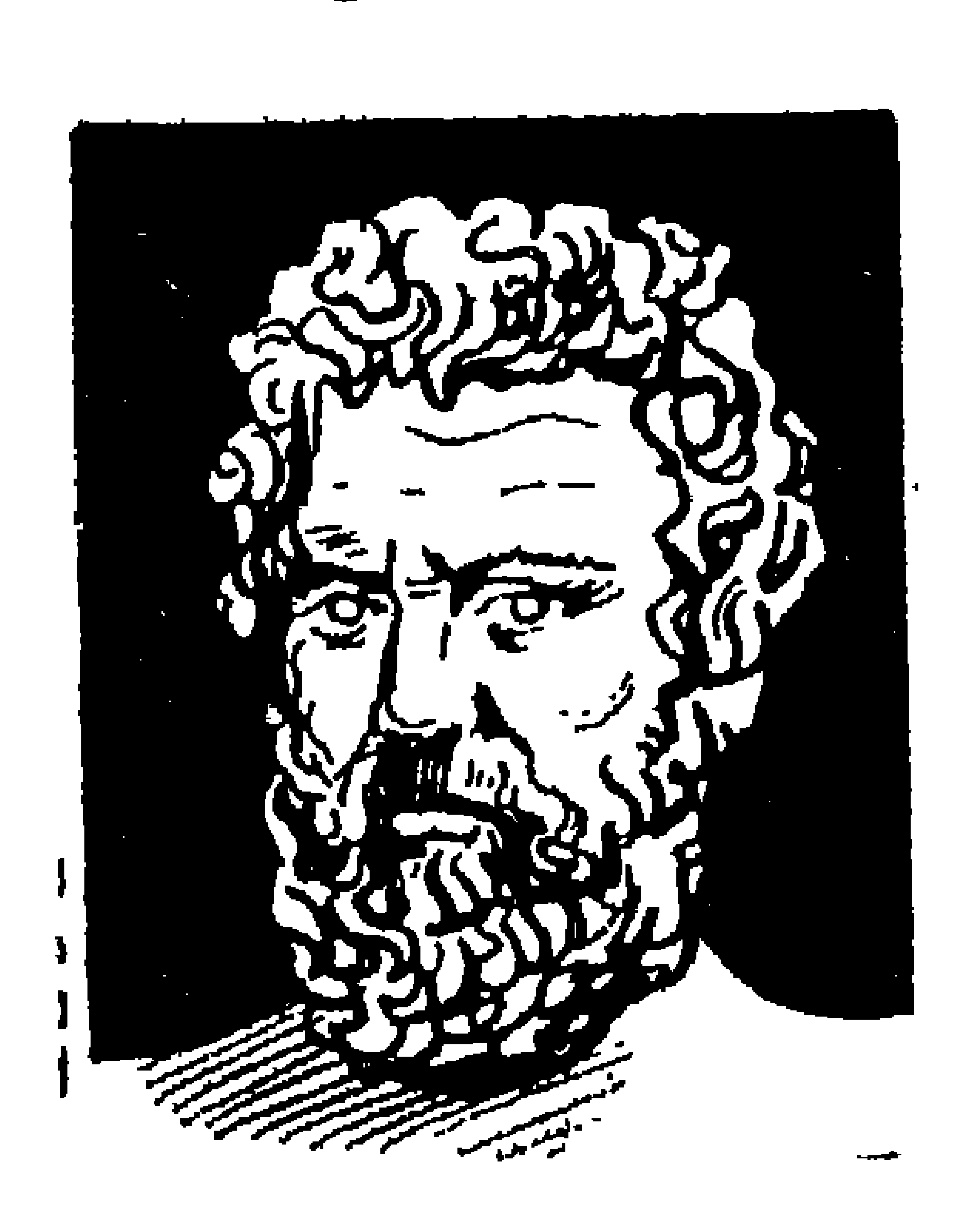
درة الأدب الإغريقي

أوديب الملك

مأساة تمثيلية كبرى : لسوفوكل

المؤلف

(٤٩٥ ـــ ٤٠٥ قبل الميلاد)



● يعتبر « سوفوكليس » عميد مؤلفي المسرح الإغريقي قاطبة .. وقد كتب أكثر من مائة مأساة تمثيلية ، فقدت غالبيتها فلم يبق من هذا التراث الخالد غير سبع مآس فقط ، هي حسب تاريخ تأليفها : أنتيجون ، إليكترا ، تراخينيا ، أوديب الملك ، أجاكس ، فيلوكتيتس ، أوديب في كولوناس .. ولو اقتصر إنتاج سوفوكليس على هذه المسرحيات السبع لكفت لاعتبار الدور الذي لعبه في تطور المأساة الإغريقية دورا خالدا في تاريخ الأدب ! ويمتاز سوفوكليس بروعة البناء الفني لمسرحياته ،

و« إنسانية » موضوعاته وأسلوبه ، على النقيض من زميله ومعاصره « أسخيلوس » الذى نبغ فى تمجيد « البطولة » بصفة خاصة .. بل إن سوفوكليس يتفوق حتى على ثالثهما « يوريبيدس » لسعة أفق الحياة والعواطف التى يصورها فى تمثيلياته ، وعمق تحليله للطبيعة البشرية .. وكفاه فخرا أنه خلق شخصية « أوديب » الخالدة ، وشخصية الإنسان الذى تغلب عاطفيته عدله ، وبرغم ذلك نستشف النبل وراء دوافعه وحوافزه !.. ويعتبر أكثر النقاد مسرحية أوديب أعظم مسرحيات سوفوكليس جميعا ، وقد أشار إليها « أرسطو » مرارا فى سفره الذى سماه « فن نظم الشعر » . وأغلب الظن أن سوفوكليس كتبها لتمثل فى إحدى المسابقات المسرحية الدورية التى كانت تقام فى أثينا فى ذلك العصر ، والمرجح أنها مثلت لأول مرة سنة ٤٢٥ ق.م .

وقد ولد سوفوكليس فى « كولوناس » ، بالقرب من أثينا ، عام ٤٩٥ قبل الميلاد .. وعاش فى العاصمة الإغريقية الزاهرة حياة طويلة (بلغت التسعين عاما) ، عاصرت الحروب الفارسية .. وعصر بركليس .. وفترة من الصراع ضد إسبرطة !

شخصيات الرواية

أوديب : ملك « طيبة »	Oedipus
جوكاستا : زوجة أوديب	Jocasta
كريون : شقيق جوكاستا	Creon
تيريسياس : عراف أعمى	Tiresias
أنتيجون : ابنتا أوديب	Antigone
إيسمين : ابنتا أوديب	Ismene
رسولان	Two Messengers
راع	Shepherd

تمهيد للرواية : أسطورة أوديب

● قبل أن يجلس أوديب على عرش « طيبة » كان يحكمها ملك يدعى « لايوس » . وكانت الملكة « جوكاستا » ــ زوجة الملك الجديد ــ زوجة للملك السابق فى حياته ، فلما رزقا ابنا ذكرا انزعج الوالدان أيما انزعاج ، فقد تلقى الأب وحيا من معبد دلف المقدس انطوى على نبوءة له بأنه سوف يقتل بيد ابنه الذكر الذى سيرزق به فى المستقبل !.. فرأى الملك أن يتخلص من هذا الخطر بالتخلص من ابنه الوليد ، فأمر بأن تثقب

قدما الطفل وتقيدا بحربة مسنونة إلى صخرة على سفح جبل « كيثايرون » المهجور .. حتى يلقى الوليد حتفه !

لكن الأقدار تدخلت لإنقاذ الطفل البرىء ، فقد أشفق عليه رسول الملك الذى كلف بإهلاكه ، فتركه فى ظل كهف ظليل ، لينجو على الأقل من وزر قتله .. وصادف أن مر بالمكان راع كان يبحث عن ماشيته الضالة ، فعثر بالطفل .. وحمله إلى بلاط ملك كورينثة المدعو « بوليبوس » وزوجته « ميروب » فكفلاه وتبنياه ..

وشب الطفل « أوديب » فى بلاط ملك كورينثه حتى بلغ مبلغ الرجال .. وذات ليلة ، فى إحدى الحفلات ، لعبت الخمر برأس أحد السمار فأبدى تشككه فى نسب أوديب ! الأمر الذى دفع هذا إلى المبادرة باستشارة الآلهة بشأن نجمه .. فتنبأوا بأنه سوف يذبح أباه ويتزوج من أمه !.. وإذ أزعجت النبوءة أوديب ، بادر من فوره إلى الفرار من بلاط « والديه » ملكى كورينثه ، رغم أنه لم يعرف له فى الدنيا أهلا سواهما ، إشفاقا عليهما وعلى نفسه من المصير الرهيب الذى تنبأت له به الآلهة !

لغز « أبو الهول » !

● فى تلك الأثناء ظهر فى طيبة الوحش « أبو الهول » ، مروعا أهلها بلغزه العجيب المستعصى الذى أخذ يلقيه على كل من يصادفه ، فإذا عجز عن حله قتله لساعته !.. وكان اللغز المطلوب حله هو هذا : « ما هو المخلوق الذى يمشى فى الصباح على أربع ، وفى وقت الظهيرة على رجْلين

ووقت الغروب على ثلاثة أرجل !»

و لم يستطع أحد من الذين صادفهم الوحش ووجه إليهم اللغز أن يهتدى إلى حله ، فمضى « أبو الهول » يمعن فى أهل طيبة ذبحا وقتلا .. حتى ضج سكان المدينة فزعا من هذه الكارثة التى هبطت عليهم ، وبلغت فواجعهم واستغاثاتهم مسامع الملك لايوس ، فحزن لمصير شعبه .. و لم يجد بدا من التوجه مع نفر من حاشيته إلى معبد « دلف » لاستشارة الآلهة فيما ينبغى فعله لوقف غضبها الذى صبته على المدينة .. لكن الموكب التقى فى الطريق بأمير مجهول من أمراء كورينثه (لم يكن سوى « أوديب » الهارب من بلاط والديه ، فرارا من قدره المقسوم !) فنشبت بين أوديب وبين المسافرين فى ذلك الموكب — وكان يجهل شخصياتهم ! — مشادة تطورت إلى مبارزة ، صرع فيها الأمير الملك لايوس وأفراد حاشيته جميعا ، ما عدا واحدا استطاع أن ينجو بنفسه !

وحين نفض أوديب سيفه من المعركة ، واصل سفره متجها إلى « طيبة » دون أن يدور بخلده أنه قتل لتوه ملكها ! فلما وصل إليها واجه الوحش أبا الهول ، الذى ألقى عليه لغزه المحير .. فوفق أوديب إلى الحل الذى عجز عنه أهل المدينة جميعا : قال إن المخلوق المقصود باللغز هو الإنسان ، فهو يمشى فى طفولته على أربع ، وفى شبابه على رجْلين ، وفى شيخوخته على رجلين ثالثتهما العصا التى يتوكأ عليها !

وإذ كان هذا الحل هو الصائب ، قفز أبو الهول من فوق صخرته واختفى عن الأنظار !.. وفى الوقت الذى هلل فيه الشعب فرحا بالخلاص من اللعنة التى كانت قد حلت به ، وصلت أنباء مصرع الملك لايوس

وحاشيته فى الطريق ، على صورة غامضة ، بيد أشخاص مجهولين .. فلم يجد الشعب خلفا يجلسه على العرش الشاغر خيرا من الأمير « أوديب » الذى أنقذه من الوحش ، فوهبه تاج الملك الراحل وزوجته جوكاستا !

واستقر أوديب وزوجته جوكاستا على عرش « طيبة » ..

وتتابعت الأعوام ..

١

● فإذا رفعت الستار عن الفصل الأول من المسرحية ، فقد انقضى على هذه الأحداث اثنا عشر عاما ، أثبت الملك أوديب خلالها مقدرة فائقة وكفاءة ملحوظة فى حكم البلاد .. ونعمت « طيبة » طيلة تلك السنوات بفترة يسر ورخاء .. حتى تفشى فيها فجأة وباء الطاعون ! فهرع الشعب إلى الميدان المواجه لقصر الملك ، وأرسلوا إليه وفدا منهم يلتمس منه إنقاذ رعاياه من الوباء المروع ، كما أنقذهم منذ اثنى عشر عاما من الوحش أبى الهول ! فيجيب أوديب على توسلات مندوبى الشعب قائلا إنه قد بادر بالفعل إلى إرسال شقيق زوجته الملكة — المدعو كريون — إلى معبد دلف ليسأل الآلهة عما ينبغى فعله لرفع غضبها عن المدينة ..

وفيما الملك يتكلم ، يصل كريون عائدا من مهمته :

أوديب : حدثنا أيها الأمير المحبوب ، أى جواب مقدس تحمله إلينا من آلهة معبد دلف ؟

كريون : أن نثأر لدم ملكنا السابق لايوس !

أوديب : نثأر ؟ ولكن كيف ؟ كيف نلاحق الإثم المطمور فى طيات الماضى المريب ؟ كيف نعثر على القتلة ؟

كريون : الإله يشترط لكى يرفع عنا الوباء أن نقتص من القتلة أولا !

● لكن أوديب لا يعلم من قصة مصرع سلفه أكثر من أنه قُتل فى ظروف غامضة ، فيستفسر الآن من حاشيته عن التفصيلات ، فيعلم أنه قُتل بيد عصابة من اللصوص ، هو وأفراد حاشيته جميعا ، باستثناء شخص واحد عاد سالما ، لكن الصدمة هزت أعصابه وطمست ذاكرته بحيث لم يعد يذكر شيئا من تفصيلات المأساة !

واستجابة لسخط الشعب يتحمس أوديب لفكرة الثأر من القتلة ويستمطر اللعنات عليهم ، متوعدا إياهم بأشد العقاب .. ويقسم أمام رجال حاشيته على ذلك !

وهنا يستحثه كريون على استدعاء العراف الأعمى المسن « تيريسياس » ، لعله يستطيع الاهتداء إلى مفتاح الجريمة .. فيحضر العراف ، يقوده صبى صغير .

أوديب : تيريسياس ، أنت ترى كيف يفتك الطاعون المخيف بشعبنا البرىء .. فانقذنا جميعا من اللعنة التى خلفها الموتى وراءهم .. تكلم ، أفصح لنا عن اسم قاتل الملك لايوس !

تيريسياس : أنا أفصح ؟ بل دعونى أذهب إلى بيتى بسلام ..!

أوديب : أنت تعرف القاتل ولا ترشدنا إليه ؟.. تتركنا حتى يهلك الوباء شعبنا ؟

تيريسياس : ماذا تريدنى أن أقول ؟ إنك تواجهنى بسؤال لن أجيبك عليه .. لخير للجميع ألا أبوح بما أعرف !.. ولندع الأيام تميط بنفسها اللثام عن الحقيقة ..

● **لكن** إحجام العراف عن الإرشاد إلى القاتل يثير ثائرة الملك أوديب ، وشكوكه ، فيرجح أن يكون العراف نفسه مدبر الجريمة .. ويواجهه بالتهمة !.. وإزاء هذا يضطر العراف إلى الدفاع عن نفسه ، غاضبا لشرفه وطهارة يده ، فيلقى أخيرا بالحقيقة فى وجه أوديب ..

تيريسياس : إنك أنت سبب البلاء ومصدر الوباء .. أنت أنت القاتل الذى تبحث عنه !

أوديب : ماذا تقول ؟ كيف تجرؤ !؟

تيريسياس : أو لم تلح علىّ فى الإفصاح عن اسم القاتل الذى يطلب الإلـه الاقتصاص منه كى يرفع الوباء عن طيبة ؟ إنك أنت مصدر اللوثة التى أغضبت الإلٰـه فأهلك من أجلها شعبك !

● **ويحتدم** النقاش ، فيتهم أوديب شقيق زوجته « كريون » بأنه الموحى إلى العراف بهذه الفرية ، طمعا فى اغتصاب عرشه !

أوديب : يا لسلطان الحسد ، الذى جعل مخلصا قديما مثل « كريون » يسعى الآن بالخديعة كى يطيح بى عن عرشى ، مستأجرا هذا المشعوذ الدنىء ، الأعمى عن

كل شيء عدا الكسب الحرام !

تيريسياس : لست أنا الذى جئت من تلقاء نفسى ، وإنما أنت الذى استدعيتنى .. وها أنا ذاهب ، بغير أن يجبرنى على ذلك خوف منك ، فلست أنت القوة التى تملك إيذائى ! ودعنى أكرر على مسمعك : إنه هنا ، قاتل الملك لايوس الذى تبحث عنه .. ولن يعود عليه كشف الحقيقة بالخير والغبطة ، فلسوف يفقد البصر وهو المبصر !.. ويفتقر ، وهو الذى يرفل الآن فى الثراء !.. ولسوف يمضى منبوذا إلى بلاد غريبة !.. كيف لا وهو والد أطفاله وشقيقهم ... ابن أمه وزوجها !.. البذرة ، والباذر ، والمبذور !.. الفاسق بأمه ، والقاتل لأبيه !

فإذا أفرغ العراف الأعمى جعبته من هذه اللعنات والنبوءات ، استحث الصبى أن يقوده إلى الباب ...

٢

● **فإذا** كان الفصل الثانى فقد أمر أوديب بقتل « كريون » شقيق زوجته ، بتهمة التآمر على عرشه !.. فلجأ كريون إلى الشعب يحاول أن يستنصفه من ظالمه ، ويثيره ضد طغيانه !.. **وتقف الزوجة الحكيمة — « جوكاستا » — فى هذه المحنة موزعة القلب بين زوجها وشقيقها .. وتلمح بوادر انقسام فى صفوف الشعب ، وثغرة فى ولائه للملكـه**

« الظالم » ، فتنتهزها فرصة لإقناع أوديب بعدم اللجوء إلى العنف أخذا بشائعة لم يقم عليها دليل ، واندفاعا وراء عاطفة غضب موقوتة ..

وتضم حاشية الملك صوتها إلى صوت الملكة .. فيرضخ أوديب ، ويكتفى « بنفى » كريون بدلا من قتله !

وإذ تخلو « جوكاستا » إلى زوجها تحاول أن تزيل أثر العداء الطارئ بينه وبين شقيقها :

جوكاستا : أوَ تصدق مزاعم العرافين ؟.. إنهم بشر ، ما أضأل معرفتهم بالغيب ، وأكذبهم ! وإليك الدليل ..

● وتقص عليه قصة النبوءة القديمة التى أوحت إلى زوجها السابق « لايوس » بأنه سيرزق ابنا ، ويموت قتيلا بيد هذا الابن نفسه !.. وتستطرد جوكاستا إلى أن لايوس مات مقتولا بالفعل ، لكنه إنما قتل بيد تلك العصابة من اللصوص التى هاجمته « فى مفترق ثلاث طرق » .. فضلا عن أن ابنه الذى رزقه قد ألقى وهو بعد فى يومه الثالث ليلقى حتفه على سفح جبل مهجور ، بعد أن سمرت قدماه فى إحدى الصخور بحربة مسنونة .. بحيث لا يمكن أن يكون قد عاش وحقق النبوءة !

لكن جوكاستا لا تكاد تشير إلى أن لايوس قد قتل عند « مفترق ثلاث طرق » حتى يدب فى ذاكرة أوديب دبيب غامض ، يزداد إزعاجا له وإلحاحا على ذهنه حين يعرف أن مفترق تلك الطرق يقع فى جهة « فوكيس » !.. وإذ تتفاقم هواجسه لا يملك نفسه من إشراك زوجته فيها ، لعله يجد عندها ما يرد الطمأنينة إلى ضميره .. وهكذا يبوح لها بأنه شب معتقدا أنه ابن « بوليباس » و « ميروب » ملكى كورينثه ،

حتى أفلت لسان أحد السكارى فى مأدبة كان يحضرها فقال إن أوديب ليس ابن الملكين الحقيقى .. وأزعجه هذا القول فمضى ذات يوم ليستشير الإلٰه بأنه سوف يقتل أباه وينجب نسلا من أمه ! — دون أن يزيد الوحى على ذلك حرفا .. فاعتقد أوديب أن قول ذلك المخمور الماجن بصدد نسبه كان فرية كاذبة ، وإذ خشى على أبيه وأمه — ملكى كورينثة — من تحقق النبوءة الجديدة بادر إلى الفرار من كورينثه ليقضى حياته فى طيبة .. وفى الطريق ، عند ملتقى ثلاث اتجاهات ، التقى بعربة تقل سيدا وعددا من خدمه ، وإذ كان الطريق ضيقا لا يتسع لمروره هو والعربة فى وقت واحد ، تحرش به أحد الخدم ، فقتله أوديب .. ثم قتل سيده الذى هب لمهاجمته .. ثم أجهز على بقية الركب الذين أرادوا الانتقام لقتلاهم !.. وهكذا لم ينج من ركاب العربة غير خادم أخير لاذ بالفرار ..

وإذ يفرغ أوديب من رواية القصة لزوجته ، تزداد مخاوفه من أن يكون هو قاتل لايوس حقيقة ، ولا يبقى لديه غير ثمة بصيص ضئيل من الأمل فى أن يكون التشابه بين ظروف المعركتين محض مصادفة .. فيصيح وقد أزمع أن يقطع الشك باليقين :

أوديب : أحضروا فورا ذلك الخادم الذى نجا !

٣

● **فإذا** كان الفصل الثالث فنحن فى انتظار وصول الخادم المذكور ، الذى صار الآن راعيا للأغنام .. ونرى « أوديب » مشفقا من حضوره ، فى حين تحاول زوجته جوكاستا أن تهدئ من مخاوفه وتطامن من انزعاجه بالقول إن الأمر لن يتكشف عن شيء ذى بال ، ولن تتحقق نبوءة الآلهة بحال !

وفى هذه الأثناء يقبل رسول من كورينثة فيعلن أن الملك «بوليباس» قد مات ، فأصبح ابنه أوديب ملكا على كورينثه . ويفرخ روع أوديب لهذا النبأ الذى يكذب على الأقل نصف نبوءة الآلهة ، فقد مات بوليباس نتيجة المرض ولم يمت مقتولا بيد ابنه أوديب .. وإذن لم يبق أمام هذا ما يخشاه غير النصف الآخر من النبوءة ، الخاص بإنجابه نسلا من أمه ! وإزاء ذلك ينهى أوديب للرسول أنه لن يقبل عرش كورينثه ، خشية أن توقعه الظروف فى شرك الاتصال بملكتها ميروب ـــ أمه ـــ فتتحقق النبوءة !

وهنا يتصدى الرسول لتبديد مخاوف الملك ، فيصارحه بأنه ليس ابن بولیباس وميروب حقيقة ، بل ابنهما بالتبنى فقط !.. ويدعم الرسول زعمه بالقول إنه هو الذى حمل أوديب الطفل إلى بلاط ملكىّ كورينثة ، بعد أن وجده مقيدا من قدميه إلى صخرة على سفح جبل

« كيثايرون » وكان الذى أرشده إلى مكانه راع من زملائه كان يعمل قبلا فى خدمة الملك لايوس !

ويجمد الدم فى عروق الملكة جوكاستا وهى تنصت إلى أقوال الرسول التى تميط اللثام عن الحقيقة الرهيبة .. وتحاول أن تثنى أوديب عن فكرة استدعاء ذلك الراعى الذى يملك وحده مفتاح الموقف !.. لكن الملك المعذب قد صح عزمه على نبش الحقيقة من مرقدها وكشف النقاب عنها مهما كانت بشاعتها وأيا كان الثمن !

ويقترح أحدهم أن تفصح الملكة عن اسم خادمها القديم ، لكن التعسة تناشد « زوجها » أن يصم أذنيه عن الشائعات والترهات ، ويطلق بحثه عن الحقيقة طلاقا حاسما :



جوكاستا : بحق الآلهة كف عن التحرى والاستقصاء ، إذا كانت

لحياتك قيمة فى نظرك .. كفانى شقائى وأساى ! أواه ياابن الألم والويلات ، أتوسل إليك يا إلـٰهى ألا تطلعه على الحقيقة قط !

أوديب : (**فى إصرار**) فليحضر الراعى إلى هنا دون إبطاء !

● **ويمضى** الرسل لتنفيذ الأمر .. فتطلق جوكاستا صرخة لوعة ويأس ، وتنطلق من الحجرة لا تلوى على شىء ! بينما يلاحقها صوت أوديب قائلا فى لهجة احتقار إنها إنما تخشى انكشاف سر مولده ونسبه لأنه كفيل بطعن كبريائها فى الصميم ..

ويقاد إلى الحجرة شيخ مسن يرتجف خوفا .. فلا يكاد يقع عليه بصر الرسول القادم من بلاط ملك كورينثة حتى يتعرف فيه على شخص الراعى الذى أعطاه الطفل أوديب !.. ويدرك الراعى من فوره بشاعة المأساة ، فيحاول عبثا إسكات الرسول الثرثار .. ولكن دون جدوى ، فقد فات الأوان !

وتحت تأثير تهديد أوديب للراعى بالتعذيب ، يعترف المسكين بأن أوديب هو ابن الملك السابق لايوس وزوجته الملكة جوكاستا ، وأنهما قد أعطياه إياه ليهلكه .. لكن قلبه لم يطاوعه على ارتكاب هذه الجريمة فخان ثقتهما وتركه على قيد الحياة !

أوديب : ويلتاه ! ويلتاه ! ويلتاه ! أخيرا ينكشف كل شىء بوضوح .. أواه أيها الضياء ، فلتكن هذه نظرتى الأخيرة إليك ، أنا

الذى أدين بمولدى إلى من لا ينبغى أن أدين لهما .. إلى أم كان ينبغى أن لا أعاشرها ، وأب كان ينبغى أن لا أقتله !

ويندفع إلى داخل القصر كالمجنون .. !

٤

● **فإذا** كان الفصل الأخير رأينا نفرا من رجال الحاشية يروون ما وقع عقب حوادث الفصل السابق : فقد أقبل على أوديب رسول يقول إن جوكاستا قد فرت إلى مخدعها القديم صائحة باسم زوجها الأول « لايوس » مولولة فى فزع وذعر : « ويلى أنا الشقية .. زوج ولد من الزوج ، وابن ولد من الابن !» .

وحين يلحق بها أوديب المعذب بعد حين فيقتحم عليها الباب وسيفه فى يده ، يجدها معلقة فى وسط الغرفة من رقبتها .. وقد خنقت نفسها بشعرها !.. فيحل المسكين وثاقها ، ثم ينتزع من صدرها مشبكا ذهبيا ويفقأ به عينيه صائحا : « إنكما لن تعودا ترياننى ، أو تريان أساى ، وخطاياى !.. وأنت يا ضياء النهار ، دعنى أراك للمرة الأخيرة !..»

ثم يتحامل الملك التعس على نفسه وهو ينزف دم عينيه ، ويطلب أن يقودوه إلى خارج القصر ليواجه شعبه الوفى .. وهناك ، أمام الجماهير الباكية يظهر أوديب ، بائسا ، أعمى ، دامى العينين ، فيعلن لشعبه أنه قاتل

ملكهم السابق « لايوس » وملوث فراش « أمه » التى أنجبته !.. ويروح يصب لعناته على الإلـٰه أبوللو الذى تنبأ له بهذا المصير ، وعلى الراعى الأثيم الذى أنقذه من الموت وهو طفل وليد !

ويطالب أوديب قومه أن يدعوه يهيم على وجهه فى الأرض ، ليكفر عما جنى .. وفى هذه الأثناء يصل « كريون » شقيق الملكة فلا يكاد يقف على ما حدث حتى يأمر بإعادة الملك إلى داخل القصر :

كريون : إنى لم آت أيها العزيز أوديب لأحقرك أو أوبخك من أجل جرائمك السابقة ..

أوديب : بل فلتطردنى توا خارج هذه البلاد .. فقط ، أوصيك بابنتىّ المسكينتين .. ألا دعنى ألمسهما بيدى وأبكى معهما أحزانى .. امنحنى هذه المنة الأخيرة أيها الأمير !

● ثم يكرر توصيته لخالهما برعايتهما فى يتمهما الطويل ، والسهر على حمايتهما من الفقر أو العار الذى قد يلحق بهما من جراء إثم والديهما .. كما يوصيه بتهيئة جنازة لائقة للملكة جوكاستا .. ويستجيب كريون لتوسلات أوديب فيستدعى له ابنتيه :

أوديب : (**وقد أحس بدخول بنتيه «أنتيجون» و «إيسمين»**): أواه يا إلـٰهى، هل أسمع نغم صوتكما الحبيب تقطعه شهقاتكما؟ تعاليا إلىّ يا طفلتى العزيزتين .. إنى أبكى من أجلكما ، من أجل الحياة الكئيبة الموحشة التى تنتظركما

على يد البشر فى سنواتكما القادمة .. أواه يا كريون ، لا تدعهما تقاسيان عناء الحياة بغير أزواج ، أو تتسولان من أجل خبزهما اليومى ..

كريون : أوديب ، كفى دموعا وبكاء ..

أوديب : بل دعنى أبكى .. مصيرهما ، ومصيرى .

كريون : حانت ساعة الفراق ..

أوديب : هكذا سريعا !.. لم يبق إلا أن أذعن لقدرى ونصيبى ، مهما كان قاسيا ..

● **ويتركهم يقودونه إلى حيث شاءوا أن يقضى بقية حياته فى داخل القصر .. فى منفى رهيب من العمى والعذاب .**

وتغلق خلفه الأبواب ..!

(ستــار)



في سبيل الحب

مأساة تمثيلية كبرى : للشاعر " جون درايدن "

البطلة .. والمسرحية .. والمؤلف

عزيزى القارئ ..

إذا كنت قد قرأت من قبل سيرة كليوباترة كما سجلها المؤرخون، فقد بقى أن تقرأ قصة غرامها الأعظم كما تخيله شاعر عظيم .. فغرام « أنطونى وكليوباترة »يكاد يعتبر أشهر حب فى التاريخ ! وقد عالج موضوعه أعظم مؤلفى العالم الموهوبين ، منذ شكسبير ، مدفوعين جميعا بحافز واحد ، هو روعة مغزاه الأخلاقى .. ذلك أن أبطال الرواية الرئيسيين كانوا نماذج خالدة للحب غير المشروع ، الذى انتهى بأصحابه إلى أسوأ نهاية !.. أما الرواية ذاتها فهى الصورة المسرحية للعدالة المثالية ، للعقوبة العادلة التى تتبع العواطف المحرمة .. ولئن كان أبطالها قد ارتكبوا إثما يستحقون عليه عقوبتهم ، إلا أنهم ليسوا على درجة من الشر تفقدهم عطفنا .. فهم خطاة مسلوبو الإرادة ، أكثر منهم أنذالا مستهترين ..!

● ومؤلف هذه المسرحية هو الشاعر الإنجليزى القديم « جون درايدن » ، الذى عاش بين عامى ١٦٣١ و ١٧٠٠ وقد كان جده وعمه يحملان أرفع ألقاب الدولة ، وترك له أبوه ضيعة تغنيه عن الانشغال بمطالب العيش والحياة المادية ، فاستطاع أن يكرس وقته لتأمل قيم الحياة المعنوية .. كان يقضى الصباح فى الكتابة والتأليف ، وينفق العصر بين

أسرته وأفراد بيته ، ثم يمضى فى المساء إلى مشرب « ويلز » الذى كان ملتقى أدباء العاصمة الإنجليزية ، حيث كان الشعراء الشبان والطلبة والفنانون ينظرون إليه باعتباره معجزة عصره ! وكان هو ، أيضا ، يعتبر نفسه أنبغ مفكرى زمانه ، فكان ينشق السعوط وينثر عباراته اللاذعة بخيلاء ولهجة متعالية .. وضاعف من خيلائه أنه صار ذا حظوة عند الملك والأمراء ، فكان يخصهم بعبارات إهداء كتبه الجديدة ومقدماتها ، ويتلقى مقابل كل مقدمة كيسا من ذهب المعز !

. وقد وضع درايدن سبعا وعشرين مسرحية ، ما بين مأساة وكوميديا ورواية ساخرة ورمزية .. ولكن بعض هذه المسرحيات لقى فشلا ذريعا ، وبعضها منع تمثيله على المسرح لعدم لياقته من حيث الآداب العامة .. وبعضها نجح نجاحا هائلا ..

ويجمع النقاد على أن مسرحيات درايدن تفوق مسرحيات شكسبير من ناحية الفن والصنعة ، لكنها تقل عنها من ناحية الشعر والفلسفة ، فيما عدا مسرحية « فى سبيل الحب » التى نقدمها اليوم ، فقد بلغ فيها الذروة ! (فى الأصل الشعرى الإنجليزى الكامل بطبيعة الحال) .

شخصيات الرواية

مارك أنطونى	Marc Antony
كليوباترة	Cleopatra
فنتدياس (قائد جيش أنطونى)	Ventidius
شارميان (وصيفة كليوباترة)	Charmian
أليكساس (خصى كليوباترة)	Alexas
أوكتافيا (زوجة أنطونى)	Octavia
دولابيللا (صديق لأنطونى)	Dolabella

١

● **عندما** ترفع الستار نجد أنطونى متورطا فى حبه لكليوباترة ، تورط الحشرة فى نسيج العنكبوت !.. ونعلم من الحوار الذى يدور أن معركة « أكتيوم » قد انتهت بهزيمته على يد خصمه « أوكتافيوس قيصر » الذى يقل عنه ذكاء وبراعة ، وإن فاقه فى المران العملى .. فانزوى أنطونى فى معبد (إيزيس) فريسة لليأس المرير ، وقد أخذ يسائل قائده « فنتدياس » فى حسرة :

أنطونى : لماذا رفعتنى الأقدار إلى السماوات ، وجعلتنى أتوهج

كالشهب ، وأضيء حيثما ذهبت .. حتى استنفدت نارى
وقودها فسقطت من عليائى ، كى يطأنى قيصر ؟!

● لكن القائد فنتدياس يحاول أن يحيى فى زعيمه شجاعته الروحية القديمة ، فيهيب به :

فنتدياس : انهض ، انهض بحق شرفك .. إن اثنتى عشرة فرقة تنتظرك .. إنهم يرجونك أن تسرع كى تتولى قيادتهم !

● نعم إن فى استطاعة أنطونى أن ينهض من كبوته مرة أخرى ويرتفع إلى ذروة المجد والشهرة ، والجنود على استعداد لأن يتبعوه .. ولكن بشرط واحد : أن ينبذ كليوباترة !.. بدونها يستطيع أن يصبح إمبراطور روما . أما إذا أصر على البقاء معها فإنه .. يفقد كل شيء !

أنطونى : لا أريد أن أسمع كلمة سوء فى كليوباترة !.. إنها تساوى فى نظرى أكثر من جميع الممالك التى أستطيع أن أغزوها !

● لكن فنتدياس يوبخه ويلومه .. ثم يتوسل إليه .. ويناقشه .. ويجادله .. حتى يتوصل أخيرا إلى جعل العاشق يخجل من نفسه ، ويبعث فى أنطونى من جديد روح المحارب الباسل .

أنطونى : هيا بنا يا فنتدياس .. لشد ما أنا مشتاق إلى مواجهة العدو مرة أخرى ، وإلى أن أسير فى مقدمة جنودى وأحصد حصاد « الميدان » النبيل !

٢

● **فإذا** كان الفصل الثانى فقد علمت كليوباترة أن أنطونى يوشك أن يهجرها ، فتنازعها الغيظ واليأس ، حتى لقد ذهبت خادمتها « شارميان » إليه تستعطفه .. ولكن دون جدوى !

كليوباترة : ماذا أفعل ؟ وإلى من ألتجئ ؟ لقد تغلب فنتدياس .. وسوف يخذلنى أنطونى !

شارميان : لقد ذهبت إليه فوجدته محاطا بتماثيل الجنود الحديدية الخرساء الجامدة .. وكان يبدو عليه العزم والتصميم ، لكنه مع ذلك حين رآنى جفف دمعة كانت توشك أن تنحدر من عينيه ..

كليوباترة : إذن فقد بكى ؟ وهل وجدنى أستحق دمعة ؟

شارميان : ورغم ذلك فقد ردنى خائبة ، وأبى أن يراك !

● وتبدو القضية فى نظر كليوباترة خاسرة ، ميؤوسا منها ، لكنها لا تبدو كذلك فى اعتقاد « أليكساس » خصى جلالتها ، الذى يرى أن من يفر من مواجهة المعركة هو الضعيف !.. وهكذا يدبر أليكساس محاولة أخرى للتلاعب بعواطف أنطونى وإيقاد شعلة حبه لكليوباترة من جديد:

أليكساس : ها أنذا أسمع أبواق جيشه تقترب ـــ فإنه سيمر من هنا ـــ فهيا أفسحن لى الطريق كى أجرب معه حيلتى الأخيرة !

● وحين يمر أنطونى أمام القصر فى مقدمة جيشه ، يوقفه أليكساس كى يقدم إليه هدية من .. كليوباترة !

أليكساس : مولاتى كانت تود لو قدمت لك روحها ، لولا أنك أخذت هذه الروح من قبل .. لذلك فهى ترجوك أن تزين معصمك بهذا السوار المصنوع من الياقوت ، رمز قلبها الجريح ..

أنطونى : **(وهو يحاول تثبيت السوار حول معصمه)** نحن العسكريون لا نجيد استخدام أدوات الترف .. فهلا أعنتنى على تثبيت هذا السوار ؟

أليكساس : الحق يا مولاى أننا نحن الندماء لا نجيد بدورنا هذه الأمور .. لا تجيد ذلك غير الأيدى الناعمة وحدها .. وخاصة يد تلك التى أرسلت السوار !

● وهكذا يمهد « أليكساس » الماكر للقاء آخر بين مولاته وحبيبها ، الأمر الذى يثير حفيظة القائد فنتدياس وغيظه ..!

ويتم لقاء العاشقين :

أنطونى : ها قد التقينا يا سيدتى ..

كليوباترة : وهل يجب أن نفترق ؟

أنطونى : يجب ..

كليوباترة : ومن الذى يوجبه ؟

أنطونى : توجبه أقدارنا القاسية ذاتها !

كليوباترة : نحن الذين نصنع أقدارنا ..

أنطونى : ولقد صنعناها بالفعل ، حين أحببنا كلانا الآخر حبا دمرنا معا ..

● ورغم كل توسلات كليوباترة واستعطافها ، ودموعها يصمم أنطونى على الرحيل !.. لكنها تصمم بدورها على استبقائه ، فتعمد إلى استخدام سلاحها الأخير الفعال : تريه خطابا تلقته حديثا من روما !

أنطونى : بحق هرقل .. إنه خط أوكتافيوس !.. انظر ، انظر يا فنتدياس .. إنه يعرض عليها استقلال مصر ، وضم سوريا إليها ، كهدية منه فى مقابل أن تتخلى عنـى ، وتضم جيوشها إلى جيوشه لمحاربتى !

أليكساس : (**يخاطب نفسه**) : إنه يضعف .. سوف ننتصر !

فنتدياس : (**مستحثا مولاه**) هلا عدت إلى وطنك ؟ إن شرفك ، وثروتك ومجدك .. فى الميزان !

أنطونى : بل إن الثقة .. والشرف .. والفضيلة .. وكل ما هو طيب يمنعنى من أن أهجر تلك التى تضع حبى فوق الممالك والتيجان ، وتأبى التفريط فيه رغم الوعد والوعيد !.. فامنحى أيتها الآلهة حبيبك الغرير ، قيصرك ، هذه اللعبة — هذا النموذج الصغير للكرة الأرضية — كى يلعب ويتسلى به .. وقولى له إننى لن أرضى بأقل من كليوباترة !

كليوباترة : إنها ملك يمينك !

فنتدياس : (**ساخطا**) أوآه من النساء .. النساء .. النساء! إن الآلهة جميعا لا تملك للإنسان نفعا بقدر ما يملكن هن له من ضرر !

٣

● ويقر قرار أنطونى فى النهاية على البقاء فى مصر !.. ثم يخوض غمار معركة جديدة ضد جيش أوكتافيوس فينتصر عليه .. لكن البطل الظافر فى الميدان يعود قيصير عبدا خاضعا لغرامه المشبوب بكليوباترة ، فى الوقت الذى يظل فيه غريمه أوكتافيوس يهدد مركزه فى مصر بواسطة قواته المتفوقة فى العدد والعدة !

وهكذا يزداد قلق القائد المسن المخلص ــ الجنرال « فنتدياس » ــ على زعيمه أنطونى ، وشوقه إلى إنقاذه من حتفه الذى يسعى إليه !.. وينضم إليه فى جهاده حليفان قويان : هما « دولابيللا » صديق أنطونى القديم ، و « أوكتافيا » زوجة أنطونى !

أما دولابيللا فهو ضابط فى الجيش الرومانى الذى غزا مصر فى غمار الحرب ضد أنطونى .. وأما أوكتافيا ، زوجة أنطونى ، فهى شقيقة القيصر أوكتافيوس ــ غريمه !ــ وقد جاءت إلى مصر ومعها ابنتاها الصغيرتان كى تبذل محاولة أخيرة « شخصية » لإثناء زوجها أنطونى عن عزمه ، وعن غيه !.. وقد فوض كلا من دولابيللا وأوكتافيا فى أن يعرض على الرومانى الثائر شروط هدنة شريفة ، مؤداها أن القيصر أوكتافيوس على أتم استعداد لأن يعقد مع أنطونى صلحا دائما مقابل ثمن واحد : أن يهجر كليوباترة !

ونشهد موقف أوكتافيا من أنطونى فإذا هو موقف الزوجة المحبة ،

في الوقت ذاته موقف المرأة الرومانية الأبية :

وكتافيا : إن الشروط التى جئتك بها تكفل لك الاحتفاظ بشرفك مصونا ، بحيث تستطيع أن تقبلها دون أن يحمر وجهك خجلا أو يلحقك أى عار .. سأقول لأخى إننا قد تراضينا ، على أساس أن يسحب هو جيوشه ، وتزحف أنت بجيوشك كى تحكم الشرق !.. أما أنا فيمكنك أن تلقى بى إلى البر فى أثينا ، ومنها أعود وحيدة إلى وطنى .. وثق أننى لن أشكو أو أتذمر .. يكفينى أن أحتفظ بلقب زوجتك ، وأنقذك من متاعبك ..

● ويتأثر أنطونى من هذه الكلمات أشد التأثر .. لكنه يتساءل فى حيرة :

أنطونى : ولكن ماذا يكون مصير كليوباترة ؟؟ هل يجب أن تنبذ ؟ إن واجب الشفقة يقف فى صفك ، ولكن ألا يقف أيضا فى صف كليوباترة ؟

فنتيديوس : العدل والشفقة فى صف أوكتافيا .. أما كليوباترة فليس فى صفها واحد منهما !

● وفوق ذلك فهناك طفلتا أنطونى ، اللتان يجب أن يحسب لهما حساب .. واللتان تناشدهما أمهما : « **اقتربا منه يا أطفالى .. اركعا أمامه صافحاه بأيديكما الصغيرة .. تحدثا معه .. تعلقى بذراعيه يا أجرابينا » .. وأنت يا « أنتونيا » احتضنيه من خصره .. فإذا أشاح عنكما ، أو ألقى بكما على الرصيف ، فيجب أن تحتملا ذلك**

صابرتين .. فإنكما تمتان إلىّ .. وأنا قد خلقت كى أتعذب !» .

وينتج هذا الاستعطاف الأخير أثره المرجو ، فيقبل أنطونى أن يترك مصر — وكليوباترة ! — ويخاطب أسرته فى تأثر : « لقد غلبت على أمرى .. خذينى يا أوكتافيا .. خذونى يا أطفالى .. قاسمونى حياتى منذ الآن ، حلوها ومرها ! » .

ولكن كليوباترة ليست مستعدة لأن تسلم سلاحها وتفرط فى حبيبها بسهولة .. ومن ثم يدفعها يأسها إلى أن تسعى إلى أوكتافيا بنفسها .. وتلتقى الغريمتان :

أوكتافيا : لست فى حاجة إلى أن أسأل هل أنت كليوباترة .. فإن عربتك الفاخرة ..

كليوباترة : (**مقاطعة**) توحى بأنى ملكة ؟.. كذلك أنا فى غير حاجة إلى السؤال عمن تكونين ..

أوكتافيا : رومانية !.. الصفة التى تستطيع أن تصنع الملكة .. وأن تخلعها !

● وتتلو ذلك مبارزة لفظية حامية بين المرأتين ، تدافع فيها أوكتافيا بحرارة عن كرامتها ، وكليوباترة عن غرامها :

أوكتافيا : من دمر أنطونى ، غير كليوباترة ..؟! مَنْ حطَّ من شأنه فى روما ، غير كليوباترة ..؟! من جعله محتقرا فيما وراء البحار ، غير كليوباترة ..؟! من جعل أطفاله أيتاما وجعلنى أرملة تعسة ..؟! .. كليوباترة وحدها !

كليوباترة : لكن التى تحبه أكثر هى كليوباترة ! من أجل حبى

لأنطونى، فقدت مجدى .. ولوثت شرف أسرتى المالكة ..
حتى حياتى أفقدها عن طيب خاطر .. من أجل الذى
أحبه !

أوكتافيا : إذا كان الأمر كذلك .. فليكن لك ما تريدين !

● وبهذه « القنبلة » الأخيرة تغادر أوكتافيا المكان ، تاركة كليوباترة تندب حظها التعس .. ويبدو كأن الزوجة قد ربحت المعركة ضد العشيقة !

٤

● وفى هذه المرة يخشى أنطونى أن يعرض نفسه لمحنة اللقاء الأخير مع كليوباترة ، خشية أن يتكرر استسلامه لعاطفته .. فيرسل نيابة عنه صديقه دولابيللا كى .. يودعها !

ويصغى دولابيللا ، بحزن مصطنع ، لأنطونى وهو يوصيه بأن يكون حازما — ورقيقا فى آن معا !— حين يبلغ رسالة الوداع إلى كليوباترة ! أى طفل ساذج هذا النبيل أنطونى ؟ ولكن هل الرجال إلا أطفالا قد ازداد نموهم ؟ ويرثى دولابيللا لحطام « الرجل الذى كان يوما جنديا جبارا » .. لكنه يتمنى لو كان هو فى مكانه ، حتى يدمره « الحب » مثله !

والواقع أن دولابيللا نفسه كان قد وقع فى هوى كليوباترة .. التى تحاول أن تلعب ورقتها الأخيرة اليائسة مع أنطونى عن طريق إثارة غيرته ، بالتظاهر بأنها قد وقعت بدورها فى هوى دولابيللا !

ويتعمد القائد الشيخ فنتدياس أن يسترق السمع إلى الحوار الحار الذى يجرى بين كليوباترة ودولابيللا .. فيقع هو بدوره — ولكن للحظة عابرة فقط — أسير الإعجاب بها !.. فلا يملك إلا أن يحدث نفسه : « حتى أنا الذى أكرهها أحس نشوة خبيثة وأنا أتأمل حسنها الباهر .. الذى وأنا ألعنه .. أشتهيه !» .

لكن إعجابه هذا يزيده حرصا على أن ينقذ أنطونى من تلك المرأة بأى ثمن !.. ومن هنا ينقل نبأ خيانة كليوباترة — الظاهرية — له مع دولابيللا ، ثم يستطرد : « إنها غير جديرة بحبك .. ودولابيللا غير جدير بثقتك .. فاتركهما كليهما وبادر بالعودة إلى روما .. »

أنطونى : أنت تتهمها ؟ كليوباترتى ؟

فنتدياس : كليوباترتك ، كليوباترة دولابيللا .. كليوباترة كل رجل !

● وتحت وقع هذه الكلمات تجتاح كيان أنطونى جائحة من الغيرة المرة .. لكن هذه الغيرة تنتج عكس ما قصدت إليه كليوباترة تماما ! فإن أنطونى يتهمها بخيانته ، مهددا ، متوعدا .. وعبثا تحاول الاحتجاج فى حرارة بأنها إنما كانت تمثل مشهدا مصنوعا ، بتأثير انزعاجها على فقده وشوقها إلى استعادته ، فإنه يدفعها عنه فى عنف صائحا :

أنطونى : اغربى عن وجهى إلى الأبد !

كليوباترة : كيف ؟ إلى الأبد ؟ لست أستطيع أن أبتعد عنك لحظة واحدة ، فكيف إذن .. إلى الأبد ؟

● إذن لم يبق أمامها غير أن تموت !.. « وسوف أموت مسرورة بأنك كنت يوما ملك يمينى »

٥

● ويثير اعتزام كليوباترة الانتحار ذعر خصيها « ألكساس » فيبذل محاولة أخيرة يائسة كى يوفق بيت الحبيبين المتخاصمين .. ومن ثم يزعم لأنطونى أن كليوباترة قد قتلت نفسها فعلا ، آملا من وراء هذا الزعم أن يغمر الفرح قلب أنطونى حين يجدها حية ، فيغفر لها كل شيء .. وينسى كل شيء !

لكن خلق أنطونى العنيف يخلف الظنون مرة أخرى .. وهكذا بدلا من أن يحاول التثبت من صدق رواية ألكساس ، يقرر فى اندفاع أن يضع حدا لحياته هو أيضا :

أنطونى : لقد سئمت الحياة .. وبت أتوق إلى تحرير نفسى من رقها !

فنتدياس : افعل ذلك بشجاعة .. بمحاربة قيصر !

أنطونى : بشجاعة .. ولكن ليس بالقتال والحرب .. أواه يا فنتدياس ، فى سبيل من أكافح الآن وقد ماتت مليكتى !؟ دع قيصر يستولى على الدنيا بأسرها ، فما عادت سوى دائرة فارغة منذ اختفت جوهرتها ، التى جعلت لنضالى قيمة .. إن شعلتى قد انطفأت .. فلأرقدن فى باطن الأرض ، وأكف عن الحركة !

● ويسقط عامدا فوق حد سيفه ! فيجرح نفسه جرحا مميتا ، لكن

الموت السريع يفر منه !

وفيما هو راقد يتأرجح بين الحياة والموت .. تدخل كليوباترة !

أنطونى : أحية أنت ما تزالين يا مليكتى ؟ أم أننى مت وأنت أول ملك كريم رحيم يلقانى فى السماء ؟

كليوباترة : بل ما زلت حية .. وأنت يا حبيبى أنطونى ؟

أنطونى : إنى مثل رجل يعتزم سفرا عاجلا : كل متاعه قد حزم وأعد .. ولكنه فى عجلته نسى جوهرة واحدة عزيزة عليه ، فعاد من أجلها .. هكذا أنا ، من أجلك قد عدت !

كليوباترة : خذنى يا حبيبى ، ولنرحل معا !



● وتأمر وصيفتها بوضع جسم أنطونى المحتضر فوق العرش .. ثم تجلس بجواره ، وتضع الحية الرقطاء على ذراعها العارية !

ويدخل عدد من الكهنة والجنود على عجل .. لقد أتوا لينقذوا الحبيبين الملكيين من انتحارهما المرسوم ، لكنهم جاءوا متأخرين .. فوجدوهما فوق عرش الحياة ، وقد وحد بينهما الموت !

واحد من الكهنة (منشدا) : أنظروا كيف يتعانق العاشقان وهما يودعان الحياة ..

كما لو كانا يرسمان مثلا يحتذى لنصف البشرية !

شبح الابتسامة الباقى على شفتيها يظهر بوضوح أنها ماتت — مغتبطة — من أجل ذاك الذى عاشت معه ، وذهبت كى تؤنس وحدته فى عالم آخر !

فارقدا .. أيها الزوجان المباركان .. آمنين من مقادير البشرية ، لعصور طويلة آتية ..

بينما جميع أعاصير القدر تطير فوق قبركما ..

والمجد إلى أبد الآبدين سوف يروى أنه :

ما من عاشقين عاشا هكذا عظيمين .. وماتا هكذا حبيبين !

ستار

كلمة أنصاف

كليوباترة .. هل كانت من أعف نساء عصرها ؟

● والآن ، وقد فرغت من قراءة قصتي كليوباترة : كما رواها التاريخ ، وكما تخيلها الشعراء .. يحسن أن ألخص لك ـــ إتماما للفائدة ـــ بحثا نشره منذ أسبوعين فقط عالمنا الأثرى الكبير الأستاذ سليم حسن ، وفيه أنصف ذكرى كليوباترة من كل ما ألصقه بها مؤرخو الرومان من تهم خلقية ، (مدفوعين بحقدهم عليها من أجل نفوذها القوى على بطليهم العظيمين « يوليوس قيصر » و « أنطونى ») .. وقد أثبت الباحث الكبير فى بحثه الحقائق الآتية ، نوردها بنصها الحرفى كما نشرها :

● تدل الآثار المصرية على أن قيصر قد « تزوج » من كليوباترة حسب التقاليد الفرعونية .. وبعد ولادة ابنهما قيصر ، تبعت كليوباترة « زوجها » قيصر إلى روما ، حيث مكثت إلى أن قتل عام ٤٤ ق . م .

● على أثر لقاء كليوباترة بأنطونى ـــ أحد خلفاء قيصر ـــ فى سفينتها الفاخرة بمياه طرسوس ، وقع أنطونى فى هواها ، ولم يلبث إلا قليلا حتى أصبح لها زوجا شرعيا . وبذلك نجحت كليوباترة فى درء الخطر عن الكنانة . وعلى هذه الصورة ابتدأت قصة « أنطونى وكليوباترة » ، تلك القصة العالمية التى غطت على قصتها مع قيصر ، وقد ختمت بموتهما فى أحضان الحب الزوجى الطاهر عام ٣٠ ق . م، هزيمتهما فى موقعة « أكتيوم » . ولم نجد فيما وصل إلينا من الوثائق التاريخية أن اسم كليوباترة قد قرن باسم أى رجل آخر غير اسمى قيصر وأنطونى ، وقد تزوجت بهما على التوالى كما ذكرنا ، وعاشت مع كل منهما عيشة زوج عفيفة طاهرة الذيل مخلصة حتى مماتها ..

● والأمر الذى يسترعى النظر فى حياة كليوباترة أنها قبل أن تتصل بقيصر ، الأمر الذى أكسبها عداوة الرومان ، لم تسمع عنها كلمة سوء تمس شرفها . وحتى على أثر مأساة قيصر وفرارها إلى مصر لم تجد ألسنة أعدائها كلمة نابية تعيب سلوكها أو تدنس اسمها خلال الفترة بين هربها ومقابلتها لأنطونى ..

● وفى الحق أنها كانت المثل الأعلى للزوجية كما كانت أما رؤوما لأطفالها الأربعة ، الذين أنجبتهم من قيصر وأنطونى . ويعتبر المؤرخون انتحارها نهاية مشرفة نالت الإعجاب التام حتى من أوكتافيوس نفسه ، ألد أعدائها ، حتى لقد نفذ إجلالا لها آخر وصية أوصت بها فشيعها بكل مراسم الملك إلى جوار زوجها أنطونى ..

● وليس لدينا وصف مفصل عن صورتها ، ولكن إذا قسناها على بنات جنسها من البطالسة فلا بد أنها كانت ذات بشرة بيضاء ، زرقاء العينين ، ذهبية الشعر ..

● فإذا وضعنا كليوباترة فى كفة الميزان بالنسبة لأخلاق عصرها فإنها تظهر أمامنا المثل الأعلى فى الطهر والعفاف ، بل تكون اسما على مسمى ، فمعنى اسم كليوباترة « فخر جنسها » !



الثعلب

(ڤولپون)

كوميديا للكاتب الانجليزى "بن جونسون"

شخصيات الرواية

فولبون : ثرى بخيل متقدم فى السن	Volpone
موسكا : خادمه الخاص وشريكه فى مؤامراته	Mosca
فولتور : محام من أصدقاء فولبون	Volpone
كورباشيو : ثرى آخر مسن من أصدقاء فولبون	Corbaccio
كورفينو : تاجر من أصدقاء فولبون	Corvino
سيليا : زوجة كورفينو	Celia
بوناريو : ابن كورباشيو	Bonario

زمان الرواية : القرن السابع عشر

مكان الرواية : مدينة البندقية (فينيسيا) بإيطاليا

المؤلف

(١٥٧٣ ــ ١٦٣٧)

لعل « بن جونسون » هو أقدر كتاب المسرح فى عصر الملكة « إليزابيث » ــ الأولى ــ وإن لم يتلق تعليما يذكر ، فقد بدأ حياته « بناء » .. لكنه كان يجمع المعرفة فى أوقات فراغه من حيث وجد إليها سبيلا !

وفى سن التاسعة عشرة تزوج من امرأة سليطة اللسان ، فضيلتها الوحيدة وفاؤها له ، فقضى حياته معها فى شجار مستمر !

وقد بدأ « بن » يمارس هواية الكتابة للمسرح فى سن مبكرة .. فأخرج وهو فى الخامسة والعشرين روايته الكوميدية الأولى ، التى أطلق عليها : « كل إنسان فى ساعات مرحه » ، وقد قام « شكسبير » بتمثيل أحد أدوارها ، وكان وقتئذ ما يزال « ممثلا » مغمورا ، قبل أن يسطع نجمه ككاتب !

ثم دخل بن جونسون السجن ، على أثر مبارزة كاد يحكم عليه من جرائها بالإعدام !.. وحين أطلق سراحه كتب كوميديا جديدة أطلق عليها « كل إنسان فى ساعات غيظه » !..

ثم حاول أن ينتقل من كتابة الكوميديات إلى كتابة المآسى ، فكتب

عددا منها .. وذات يوم قاده حبه للشغب إلى دخول السجن مرة أخرى ، بعد أن كاد يفقد أنفه وأذنيه فى الشجار !.. فلما أفرج عنه آخر الأمر عاد إلى بيته ليجد أطفاله جميعا قد ماتوا !

وإزاء قسوة هذه المأساة زهد بن جونسون فى كتابة المآسى فعاد إلى كتابة الكوميديات ، فقدم منها فى هذه المرة روائعه الثلاثة المشهورة : فولبون (الثعلب) التى ألخصها لك فيما يلى ، و« الكيميائى » ، و« الشيطان حمار » ، وكلها حافلة بالسخرية والمرح .. وعلى إثر ذلك أنعم عليه بلقب « أستاذ فخرى فى الآداب » من جامعة أوكسفورد .. وكاد ينعم عليه بلقب « سر » ، لولا أنه رفض هذا الإنعام !.. ثم فقد آخر أطفاله ، فأصيب من جراء ذلك بنوبتى شلل قضت الأخيرة منهما على حياته فى سنة ١٦٣٧ ، وكان فى الرابعة والستين ..

واليوم ، يرى زوار قبره هذه العبارة محفورة على القبر : « أيها العبقرى النادر .. بن جونسون ! » .

١

يرفع الستار عن الفصل الأول فإذا نحن فى مدينة « البندقية » ، حيث يعيش « فولبون » .. وهو رجل بلا زوجة ، ولا والدين ، ولا أولاد .. عواطفه كلها مركزة فى ماله ، أو « ذهبه » !.. ينظر إليه نظرة العابد إلى معبوده الأوحد ، أو ملاكه الحارس !.. وفى سبيل زيادة رصيده منه يوما بعد يوم لا يتورع « فولبون » عن خداع جميع أصدقائه واحدا بعد الآخر ، موهما كلا منهم فى كل مناسبة بأن صحته قد ساءت للغاية ، وأنه على وشك أن يموت ، بغية أن يمطره أصدقاؤه بهداياهم الثمينة ، وكل منهم يطمع فى أن يسترد ما بذله أضعافا مضاعفة حين تؤول إليه ثروة « فولبون » فى القريب العاجل !

.. فلندخل إلى منزل « فولبون » ، ولنصغ إلى نقاشه مع خله الطفيلى « موسكا » الذى يشاركه فى تدبير مؤامراته وألاعيبه :

فولبون : إن أصدقائى يمطروننى بالهدايا ، والجواهر ، والذهب .. آملين أن أموت فى يوم قريب فتعود إليهم هداياهم عشرة أضعاف !.. وأنا أرحب بكل ما يقدمون ، متلاعبا بآمالهم ، مغتبطا بأن أستغل غفلتهم وسوء نواياهم ..!

موسكا : إن حكمتك براقة مثل ذهبك !.. وحاشا لك أن تبدد ثروتك على ورثة جاحدين .. وإنما خير لك أن تنفقها على خادمك المتواضع موسكا !

● وهنا يسمع طرق على الباب ، فيخلع فولبون رداءه ويقفز إلى فراشه ثم يبدأ فى التأوه والأنين !.. إنه يمثل دائما دور المريض العاجز كلما أقبل واحد من أصدقائه العديدين الطامعين !

يدخل صديقه المحامى « فولتور » — أحد ورثته المنتظرين ! — حاملا معه آنية ثمينة من الذهب الخالص ، هدية لفولبون !

فولتور : لكم يؤسفنى يا سيدى أن أراك ما زلت ضعيفا .. فهلا قبلت منى هذا الطبق الأثرى المتواضع ، مع أطيب تمنياتى !؟

فولبون : شكرا لك يا فولتور .. أنت طيب للغاية (ويبدأ الماكر فى السعال ، كأنما أصيب بنوبة مفاجئة !) .

موسكا (وهو يعين سيده ويقف إلى جانبه) : إنه ينحدر بسرعة نحو القبر ، وأنت يا سيدى وريثه !

فولتور : هل سجل فى وصيته حقا أنى وريثه ؟

موسكا : وبلا شريك يا سيدى ، لقد سجل ذلك فى وصيته صباح اليوم .. وكنت أنا الذى أغريته بذلك ، لا تنس !

● ويسمع طرق جديد على الباب فيهرع فولتور إلى الخارج .. بينما يدخل زائر آخر ، « وريث » ثان من ورثة المريض الثرى يدعى « كورباشيو » !.. وكورباشيو يأمل — برغم تقدمه هو نفسه فى السن — أن يعمر بعد وفاة صديقه الكهل ، وأن يستمتع بثروته ..!

كورباشيو (إلى موسكا) : كيف حال سيدك ؟

موسكا : سيئة جدا ..

كورباشيو : هذا حسن .. وهل كتب وصيته ؟

موسكا : كلا يا سيدى .. ليس بعد .

كورباشيو : إليك إذن هذه الحقيبة من الذهب ، قد أحضرتها له ..!
(يأخذ موسكا الحقيبة ويقترح خطة يصير كورباشيو بمقتضاها وريثا لفولبون) : وتتلخص الخطة فى أن يوصى كورباشيو بثروته كلها لفولبون ، كى يوصى فولبون بثروته كلها لكورباشيو !!

يعترض كورباشيو على الخطة فى البداية مستنكرا : « **ماذا ؟ هل أحرم ابنى من ثروتى ؟** » .. لكن موسكا يقنعه بأن هذا الحرمان سوف يجعل فولبون ـ بدافع الشكران والاعتراف بالجميل ـ يوصى بدوره بثروته كلها لصديقه السخى !.. ثم يختم الخادم إيحاءه الماكر قائلا لكورباشيو : « **وعلى أى حال فأنت لن تخسر شيئا يا سيدى ولن تخاطر بشىء ، فمن المؤكد أنك سوف تعيش بعده ..!** » .

وهكذا يقبل كورباشيو اقتراح الخادم الخبيث ، ويقول له : « **موسكا ، إنى أشكرك من صميم قلبى .. وحين يموت فولبون سوف أكون لك نعم الوالد الذى يرعاك ..!** » .

وبعد أن يجرد نفسه من ثروته على هذا النحو ، يخرج من بيت فولبون متحاملا على ساقيه المريضتين بالروماتيزم .. ولا يكاد يفعل حتى يقفز فولبون من فراشه صحيحا معافى كما كان ..!

فولبون : يا لك من ماكر ذكى .. تعال ، دعنى أقبلك !

موسكا : عد إلى فراشك حالا ، فإنى أسمع طرقا على الباب !

● **فيعود فولبون إلى فراشه وسعاله وتأوهاته !.. فى الوقت الذى يدخل فيه التاجر « كورفينو » ، وقد أحضر بدوره لفولبون هدية ثمينة من اللؤلؤ والماس ..!**

كورفينو (**لموسكا**) : كيف حاله الآن ؟

موسكا : إن ساعته قد حلت !

كورفينو : ماذا ؟.. ألم يمت بعد ؟

موسكا : كلا ، لكنه فى حكم الميت ..

● **وبعد أن يقوم الزائر بالمظاهرة المألوفة تحية للمريض وإظهارا لعواطفه نحوه ، يهمس له موسكا مطالبا إياه بأن يفرح ويغتبط « فليس يليق بوارث أن يغالى فى الحزن . » .**

كورفينو : وهل أنا وريث فولبون ؟

موسكا : ولا أحد غيرك يا سيدى !.. وقد فضلك على الباقين تبعا لنصيحتى أنا ..

كورفينو : أنت يا موسكا أعز أصدقائى ، ولسوف تكون شريكى فى الثروة ..!



● ويذهب كورفينو ، فيجلس فولبون وموسكا يستعرضان محصول اليوم : آنية من الذهب .. لؤلؤة .. وماسة .. حقيبة ملأى بالنقود الذهبية .. « ماذا ، إنها طريقة للثراء أنجع من سرقة تحف الكنائس ! » .. ويعرب فولبون عن شوقه إلى الاحتفال بحظه المواتى ، بالرقص ، والابتسامات ، والقصف والمجون !.. فإن الثعلب العجوز ما يزال متعلقا بمتع الحياة !.. بل إنه يريد من موسكا أن يجد له امرأة جميلة « لها وجه يأسر اللب ! » .

موسكا : إن زوجة « كورفينو » تتوافر فيها هذه الشروط .. بشرتها أنصع من الثلج ، وشفتاها تغريانك بأبدية من القبل !

فولبون : وكيف أستطيع أن أراها ؟

موسكا : هذا غير ميسور ، فهى فى حرز حريز — مثل ذهبك ! — لا تخرج من البيت قط ، ولا تتنسم الهواء إلا من النافذة ..!

فولبون : ولكن يجب أن أراها يا موسكا ..

موسكا : إذن فلتذهب متنكرا ، لئلا يتعرف عليك أحد !

فولبون : متنكرا ؟.. حسنا .. هيا بنا .

* * *

٢

فإذا كان الفصل الثانى فنحن فى مواجهة منزل كورفينو ، وقد تنكر فولبون فى زى تاجر دجال يبيع الأدوية والعقاقير السحرية .. وتنكر موسكا فى زى مساعده .. فاعتلى الأول مقعدا خشبيا يقع أسفل نافذة كورفينو مباشرة وراح يروج لبضاعته ، ويعلن عن مرهم عجيب يشفى كل مرض أو علة تحت الشمس !

فولبون : إذا أردت أن تحيا سليما من كل مرض ، مستمتعا بالقوة والصحة اللتين تسران عشيقتك .. فاستعمل هذا المرهم وأنت تشفى من الألم والبؤس وكل مكروه ..!

● ثم يعلن أنه سيقدم قارورة من المرهم السحرى لأول شخص يلقى إليه بمنديله .. وعلاوة على القارورة سوف يهدى إلى الشخص المذكور شيئا أثمن من كل ذهب العالم !

وتثير كلماته فضول « سيليا » زوجة كورفينو ، فتطل من نافذتها وتلقى إليه بمنديلها .. عندئذ ينحنى لها « فولبون » فى احترام ويقدم إليها هديته الموعودة : علبة من « البودرة » تحفظ لها جمالها وشبابها على الدوام ، فتظل أشبه بإلهة لا تشيخ قط !.. ثم يشرع الرجل فى إطراء جمال سيليا ... ولكن كورفينو يصل فى تلك اللحظة ويطرده بعيدا ــ دون أن يتعرف على شخصيته ! ــ فيعود فولبون إلى داره ثملا بفتنة المرأة ، عاجزا عن مقاومة شوقه إليها !

فولبون : لست أطيق الحياة إلا إذا أعنتنى يا موسكا على الحظوة بتلك المرأة !.. خذ ذهبى وجواهرى ، وكل ما أملك ، وأحضرها إلى هنا !

موسكا : سوف أبذل ما فى وسعى .. سأرحل فورا للبحث عن حيلة أحضرها بها .. فإذا نجحت ظفرت بالثراء والزهو بمقدرتى ..!

٣

فإذا كان الفصل الثالث فنحن فى بيت كورفينو ، وقد جعل صاحب الدار يعنف زوجته ويؤنبها لأنها ألقت بالها إلى بائع العقاقير :

كورفينو : إنك قد وقفت وأصغيت بأذنيك الفضوليتين إلى غزل أولئك المهرجين ودعاباتهم ..!

سيليا : يا سيدى العزيز ، إنك تحرمنى من الخروج من باب المنزل ، فهل تنوى أن تحرم على النظر من النافذة أيضا ؟

كورفينو : بكل تأكيد .. سوف أخمد أنفاس الفسق قبل أن يستشرى ، وأعلق فى رقبتك قفلا ثقيلا !.. (**يسمع طرقا على الباب**) والآن اذهبى ، ولا تدعى بصر إنسان يقع على وجهك المجلل بالعار !

● تخرج سيليا من الغرفة فى الوقت الذى يدخل فيه موسكا ، خادم فولبون ... إنه يحمل إلى كورفينو أنباء سيئة ، فإن صحة فولبون قد

تحسنت بفضل مرهم الدجال السحرى ، الأمر الذى شجع الأطباء فوصفوا للمريض علاجا تكميليا عجيبا : امرأة جميلة فياضة بالشباب والحيوية ، كى تضفى عليه من شبابها شبابا ..!

ثم يستطرد الخادم موسكا : « وفى سبيل هذه المهمة الكريهة انتدبت أنا .. ولقد تطوع أحد الأطباء بتقديم ابنته للمريض ، بغية أن يحظى برضاه قبل أن يكتب وصيته !!

ثم يناشد موسكا كورفينو بلهجة حارة :

موسكا : حل يا سيدى بينها وبينه إذا استطعت ، وإلا فقدت إرثك الهائل !.. فهل تعرف امرأة من العاهرات ، أو حتى من ذوى قرباك ، كى توصيها بأن تسرع إلى المريض قبل ابنة الطبيب ، فتفسد علاج تلك و « تقتله » بعلاجها هى ؟.. فكر فى واحدة .. تذكر ، تذكر ، تذكر يا سيدى بربك !

كورفينو : لقد اعتزمت أن أرسل زوجتى إليه .. فما من إنسان يستطيع أن ينتزع الإرث من يدى بعد أن صار منى قاب قوسين أو أدنى !

● ويؤكد موسكا لكورفينو أن ما من شىء يمكن أن يحول الآن بينه وبين أن يغدو وارث فولبون الوحيد : « فى نكسته القادمة سوف نتركه يموت .. سنجذب الوسادة من تحت رأسه ، فيموت من ضيق التنفس! » .

كورفينو : اذهب الآن إليه مسرعا وبشره بأنى سأحضر إليه زوجتى ... عسى أن تعين قبلاتها على إخماد أنفاسه !



٤

فإذا كان الفصل الرابع فقد ذهبت سيليا — مجبرة ، برغم إرادتها — إلى منزل فولبون ، بصحبة زوجها كورفينو ، كي ينفذا خطة موسكا !.. فى الوقت الذى يكون فيه عند المريض زائر آخر هو « بوناريو » ابن كورباشيو .. لقد أخبره موسكا أن أباه يعتزم حرمانه من الميراث لصالح فولبون !.. ولكى يثبت اتهامه يعمد موسكا إلى إخفاء الابن فى دولاب ، كى يسمع بأذنيه دليل خيانة أبيه !.. وحين يصل كورفينو وزوجته سيليا يضطرب موسكا ويخشى افتضاح ألاعيبه وألاعيب سيده لكل من « الورثة » الطامعين فى الإرث !.. لكنه يعتمد على ذكائه لإنقاذ الموقف ، فيحدث بوناريو :

موسكا : لقد أرسل والدك يقول إنه سوف يتأخر بعض الوقت ، فإذا أردت أن تقضى فترة الانتظار فى غرفة المكتب التى

فى آخر هذا الممر فستجد فيها ما يروقك من الكتب المسلية
التى تعين على قتل الوقت ..

وإذ يتخلص من بوناريو على هذا النحو ، يستدير إلى كورفينو وسيليا .

موسكا : لم أكن أتوقع قدومكما مبكرين هكذا ..

كورفينو : أردت أن أسبق الطبيب وابنته إلى الظفر بالحظوة لدى سيدك ..!

● وعندئذ يهنئ موسكا كورفينو على ذكائه وحسن تصرفه ، ثم ينسحب الرجلان تاركين سيليا وحيدة مع فولبون !.. فتنظر الحسناء باشمئزاز إلى الشيخ المحتضر الراقد على الفراش .. ولكن فجأة يقفز المريض من فراشه ويهرع إليها ، فتتراجع مذعورة صارخة .. ويسمع بوناريو الصرخة فيخف لنجدة المستغيثة .. وفى الهرج الذى يسيطر على الموقف يصاب موسكا بخدش من سيف بوناريو .. ثم يفر الأخير مع المرأة التى أنقذها .. فى الوقت الذى يصل فيه أبوه كورباشيو .

كورباشيو : ماذا جرى ؟

موسكا : ابنك يا سيدى .. لقد وقف على نيتك بشأن تجريده من الميراث — ولا أدرى من الذى أطلعه على الأمر — فجاء كى يتجسس عليك وأقسم أن يقتلك !

كورباشيو : هذا التصرف يزيدنى إصرارا على تجريده من الإرث ..!

● وفى هذه اللحظة يدخل فولتور فيستنتج فورا أن شيئا غير عادى يأخذ مجراه فى البيت .. وحين يطلب من موسكا إيضاحا ، يومئ إليه هذا كى يخلو به ليفضى إليه بجلية الأمر .. فإذا فعل قال له :

موسكا : لا تخش شيئا .. فإنك ما تزال الوريث الوحيد !

فولتور : إذن فما هذه المؤامرة الخاصة بوصية كورباشيو وحرمانه ابنه من الميراث ؟

موسكا : إن غرضى الأوحد هو أن أكفل لك ميراثا مزدوجا ، من ثروتى هذين الشيخين اللذين على عتبة الموت !

ثم يخرج الجميع فينفرد موسكا وفولبون :

فولبون : ماذا نفعل الآن ؟

موسكا : عسى أن تنصلح الأحوال ..

فولبون : إنى أتوجس شرا .. وأحس برطوبة زنزانة السجن تتراءى لى فى أفق المستقبل !

٥

لكن زنزانة السجن لا تكون من نصيب فولبون وموسكا .. بل من نصيب بوناريو وسيليا .. فقد أبلغ السلطات عن الأول أبوه ، ووشى بالثانية زوجها ، مدفوعين كليهما بطمعهما فى ثروة فولبون ..!

وتشاء المصادفات أن يكون المدعى العام الذى يتولى اتهام الشابين المقبوض عليهما هو فولتور ، الذى يطمع بدوره فى ثروة فولبون ويبغى إرضاءه بالانتقام له من المرأة التى استعصت عليه .. كيما يظل وريثه الوحيد !... ومن ثم فهو يلفق ضد المتهمين — بوناريو وسيليا — قضية زنا !.. ويصدق المحلفون رواية الاتهام ، فإن المتهمين لا يملكان شاهدا على نقاء صلتهما غير ضميريهما .. بينما يتحالف ضدهما — زورا — جميع

الشهود : كورباشيو ، الذى يبغى التخلص من معارضة ابنه فى وصيته .. وكورفينو ، الذى يحقد على زوجته لأنها أبت الخضوع لشهوات المريض الثرى وصرخت مستغيثة فأفسدت المؤامرة !.. ثم موسكا ، الذى يبغى الانتقام من الشابين اللذين أفسدا خطة سيده بشأن الاستئثار بثروة والد الفتى ، والحظوة بالمرأة الفاتنة ..!

ويصل فولبون — آخر شهود الإثبات — إلى قاعة المحكمة محمولا على محفة ، وقد اتخذ هيئة المحتضر المشرف على الموت !

فولتور (مترافعا ضد المتهمين) : وهذا يا حضرات المحلفين هو الشيخ الفانى الذى يريد بوناريو أن يصوره فى صورة الرجل المغتصب .... فتأملوا عينيه ، ويديه .. ثم احكموا : أهما يدا رجل يقوى على أن ينهش نهدى امرأة ؟

كلا بالطبع !.. ويقتنع القضاة بأدلة الاتهام ، وبأن فولبون شيخ عاجز يحتضر ، ومن أجله يستحق الباغيان الآثمان أن يعاقبا .. ومن ثم يحكمون على بوناريو وسيليا بالسجن ، ويشكرون فولتور على الخدمة الكبرى التى أداها للعدالة بتقديمهما للمحاكمة ...!

٦

فإذا كان الفصل الأخير فنحن فى منزل فولبون مرة أخرى .. حيث نراه فرحا بالخدعة التى انطلت على القضاة ، إلى حد أنه يصرح لخادمه موسكا بأنه قانع بهذه النتيجة أكثر مما لو كان قد حظى بالمرأة الحسناء !.. وإمعانا فى اللهو والمزاح يعمد البخيل إلى إعداد وصية مؤقتة يوصى فيها

بكل ثروته لخادمه موسكا ، ثم يعمل على نشر شائعة قوية تزعم أنه قد مات !.. وهو يبغى من ذلك أن يرى بنفسه تأثير هذا النبأ على كل من أصدقائه المنافقين !

ولا يكاد هؤلاء الطامعون فى الإرث : كورباشيو ، وكورفينو ، وفولتور ، يسمعون النبأ حتى يهرعون إلى بيت مورثهم كالطيور المندفعة إلى الشرك ! ويختبئ فولبون فى مكان يرقب منه موسكا وهو يتلو على ثلاثتهم وصية سيده المتوفى !

وتدهش الوصية ثلاثتهم ، ويثير غضبهم وغيظهم إيصاؤه بثروته لخادمه !.. لكن الخادم لا يأبه لهم ولا يعبأ بغضبهم ، وإنما يعاملهم ويخاطبهم بكل احتقار :

موسكا : والآن اذهبوا ، أيها التعساء المتكالبون على المال ... وأقفلوا أفواهكم ، وإلا رويت مؤامراتكم لعامة الناس .. فلو نطقتم بحرف لأطلقت لسانى من عقاله كى يشبعكم تشهيرا و « تشنيعا » .. فعودوا إذن إلى بيوتكم والزموا عقر دوركم ... وموتوا بغيظكم !

لكن الأنذال الثلاثة الذين خابت آمالهم يأبون التسليم لغريمهم دون قتال !.. ولا سيما فولتور ، الذى يصر على أن يثأر من موسكا ولو وشى بنفسه هو فى غمار انتقامه . ومن ثم فهو يتوجه إلى القضاة الذين أدانوا بوتاريو وسيليا كى يعترف لهم ببراءة الشابين ..!

وفى المحكمة يلتئم شمل جميع أطراف القضية ، بما فيهم موسكا بل وفولبون ، الذى تنكر فى زى ضابط بوليس ..!

فولتور : يا حضرات القضاة .. لقد حبكت خيوط اتهامى لهذين الشابين بدافع الطمع ... لذلك يطالبنى ضميرى الآن

بالتعويض والتكفير ، والاعتراف بأسماء الأئمة الحقيقيين
. إنهم موسكا و ..

فولبون (ضابط البوليس): (ينتحي بفولتور جانبا ويهمس له) صه ..
لقد كلفني موسكا أن أصارحك بأن فولبون ما يزال حيا
.. وإنك ما تزال وارثه الوحيد !

فولتور (حائرا) : والآن ، ماذا أفعل ؟...

فولبون : اعدل عن روايتك .. قل إنك مريض ، وإنك لاتفقه شيئا
مما رويته الساعة ..!

● **وإزاء ذلك يتكلف فولتور أنه أصيب بنوبة صرع !.. وحين يفيق منها يزعم أنه لا يعرف بماذا تفوه منذ برهة ... ويؤكد أنه لم يقصد أن يدلى بأى اعتراف ، وليس لديه ما يقوله .. ثم يضيف إلى ذلك أن موسكا برىء من كل إثم ، وأن فولبون لم يمت ..!**

فولبون (إلى موسكا) : لقد حسبت أن كل شيء قد ضاع ، فإذا كل
شيء بخير .. فتعال يا موسكا . أخبرهم أنى ما زلت على
قيد الحياة !

● لكن موسكا ، الذى يملك فى يده الوصية المؤقتة التى ترك له فيها سيده كل ثروته ، يأبى أن يطيع رب نعمته .. ويصر على أن فولبون قد مات !

موسكا (يواجه المحكمة) : يا حضرات القضاة ، إن سيدى المحبوب
« فولبون » قد مات ، ولقد عدت توا من تشييع جنازته !

فولبون : بل إن فولبون ، أيها السادة الأماجد ، ما يزال حيا ! **(ثم
ينزع أدوات تنكره)** أنا فولبون ، وهذا خادمى الخائن

.. والآن أيها السادة ، ما دمنا جميعا حاضرين . فلنعد النظر فى عقوبة كل من المتهمين ..!

● ويسود المحكمة جو من الهرج والمرج ، والدهشة ، والتعليقات ، والاعترافات ، ثم يتضح الموقف كله على حقيقته .. وعلى ضوئه يطلق سراح بوناريو وسيليا ... ويحكم على موسكا بالسجن المؤبد .. وعلى كورفينو بأن يقاد فى زورق يخترق قنوات البندقية كلها وقد وضعت على رأسه أذنا حمار !.. ويشطب اسم فولتور من جدول رجال القانون ويفصل من منصبه .. أما كورباشيو فيحكم عليه بالنفى المؤبد فى أحد الأديرة .. وأما فولبون ــ الثرى البخيل ــ فيزج به فى السجن وتصادر ثروته لصالح الدولة ..!

ويتوجه رئيس المحكمة إلى الحاضرين بالقول :

ــ والآن ، وقد افتضح أمر الجميع ، فسحقا لهم .. وليتعظ كل من رأى عقابهم على رذائلهم البغيضة ، ويأخذ من قصتهم درسا لا ينسى : إن الاشرار يتغذون كالوحوش حتى يسمنوا .. ثم يكون مصيرهم : الذبح !

(ســتار)


LES JUSTES
PAR
ALBERT
CAMUS
الأبرار
مسرحية فلسفية، فى إطار تاريخى
من روائع فقيد الفكر العالمى : البير كامى

هذه مسرحية رائعة ، من أدل أعمال « كامى » على عبقريته وفلسفته . إنها إهابة مؤثرة بضمير الإنسانية الذى اختلط فيه اليوم الخير والشر . إنها صرخة المثل الأعلى يتحدى هوان الواقع ، وصورة الشرف المطلق فى ثورته على فساد الدنيا . وياله من صراع حى عنيف هذا الذى يجتاح عقلك وقلبك بعد أن تشاهد فصول هذه المأساة الخمسة ، وتشاطر أبطالها مصيرهم .. ثم تتأمل فى الختام حكمة « شكسبير » العميقة التى اقتطفها المؤلف من « روميو وجولييت » ، وصدر بها نص مسرحيته عندما نشره سنة ١٩٥٠ ، أثناء تمثيلها للمرة الأولى على مسرح « هيبرتو » بباريس :

« آه الحب ! آه الحياة ! لا الحياة بل الحب فى الموت » .

١

● اتخذ « كامى » مادة مسرحيته من حادثة حقيقية وقعت فى روسيا سنة ١٩٠٥ ، هى اغتيال « الدوق الأكبر » . ولا يعنينا مقدار انطباق هذه الرواية على التاريخ المعروف ، ولن نبحث هنا عن مبلغ الدقة التى تحراها الكاتب فى استعادة الملابسات والشخصيات ، لأن « كامى » لا يسعى كما كان يسعى أدباء المسرح « الرومانتيك » فى القرن التاسع عشر إلى توخى الصدق فى تصوير الماضى وتكلف الأمانة فى بعث

تفاصيله وألوانه وخصوصياته . فلقد انقضى ذلك العهد الذى كان يقنع فيه المسرح بأن يكون « وصفيا » أو « تاريخيا » ، وأصبح الكاتب حرا لا يتقيد بحذافير الواقع ، وإنما يستعير من كتلة الأحداث الغاشمة بعض المواقف التى تتيح له التعبير عن آرائه وإبراز غايته ، ومجرد إطار يصب فيه مناقشاته معنا ، على ألسنة أبطال قد يخلقهم خلقا دون الاعتماد على سند مأثور .

وترتفع الستارة عن مقر الثوار الذين دبروا تلك المؤامرة . ولا نرى أمامنا — والصمت يخيم على المكان — سوى رئيس هذه الجمعية السرية « بوريس أنينكوف » والمجاهدة « دورا » ، ينتظران ، جامدين . وتهم « دورا » بالكلام ، إلا أن « أنينكوف » يومىء إليها بأن تسكت ، وهو يصيخ إلى وقع أقدام تقترب من الباب . ونسمع على الباب طرقة ثم طرقتين ، وهى الإشارة التى اصطلح عليها أعضاء الجمعية . ويفتح الرئيس فيرحب بالفتى القادم ويعانقه ويدخله .

إنه « ستيبان » ، الذى اعتقلته الحكومة القيصرية منذ ثلاث سنوات ، غير أنه استطاع الفرار من منفاه إلى سويسرا ، وحضر اليوم فى الموعد الذى أنبأ به رفاقه . لقد أقبل من بلد حر ولكنه لم ينعم فيه بحياة الحرية ، بل يقول :

— إنه منفى آخر ، فالحرية منفى مادام على الأرض إنسان واحد مستعبد . لقد كنت هناك طليقا ، ولكنى لم أمسك عن التفكير فى روسيا وفى عبيدها .

وهذا كلام رجل مثالى . غير أن « ستيبان » ساخط ناقم ، يلتمس القيام بعمل فعال ، ويتلهف إلى قتل الطاغية ، ويسأل عن الخطة الموضوعة ، ويطالب بأن تعهد إليه هذه اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكى بإلقاء القنبلة على الدوق الأكبر « سيرج » ، لأنه يريد أن يشفى غلته ويثأر لنفسه . وبعد نقاش مقنع ، يخضع — على الرغم منه — لأمر رئيس المنظمة ، الذى كان قد كلف بإلقاء القنبلة عضوا سواه ، يدعونه « يانك » ويلقبونه بالشاعر ، واسمه الكامل « ايفان كاليابيف » .

ويحضر « فوانوف » ، وهو المكلف بإلقاء القنبلة الثانية ، فيحيى « ستيبان » فرحا بعودته ، ويعرض على الرئيس رسما دقيقا يبين الطريق الذى سوف تسير فيه مركبة « الدوق الأكبر » من القصر إلى المسرح ، وهو طريق يمر بمركز اللجنة هذا . هل تم إذن تقدير كل شىء ؟ ويسأله « ستيبان » :

— والجواسيس ؟

— كثيرون .

— هل يخيفونك ؟

— لست أخاف شيئا ، ولكنى أضيق بهم لأننى لم أتعود الكذب .

— إن الجميع يكذبون ، ويجب عليك أن تجيد الكذب .

— ليس ذلك بالشىء السهل . حينما كنت طالبا ، كان زملائى يهزأون بى لفرط صراحتى ، وانتهى الأمر بفصلى من الجامعة .

— لماذا ؟

ـــ فى محاضرة التاريخ ، سألنى الأستاذ كيف بنى « بطرس الأكبر » مدينة « بطرسبرج » ، فأجبته : « بالدماء والسياط » ... وبعد أن طردونى أدركت أنه لا يكفى أن نفضح الظلم بألسنتنا ، بل علينا أن نضحى بحياتنا فى مكافحته . وإنى اليوم لسعيد .

ـــ غير أنك تكذب .

ـــ إنى أكذب لأضلل العيون ، ولكنى لن أكذب منذ أن ألقى القنبلة .

ويطرق الباب طرقتين ثم طرقة ـــ بترتيب معكوس ، فهكذا يروق لـ « يانك » أن يتصرف فى الاصطلاح وأن يداعب رفاقه ـــ فتنطلق « دورا » لتفتح له الباب ، ثم يدخل متأبطا ذراعها . وتقدم إليه « ستيبان » ، وتجلس بجواره قبالة الآخرين .

ومن حديث هذا الفتى الرقيق نفهم مثاليته الخالصة العالية ، وهى تسمو على مثالية « ستيبان » التى يشوبها الحنق والبغض . إنه مبتهج لاقتراب اليوم الذى يعدم فيه بيده « الدوق الأكبر » ، بل ويتوق إلى ضرب القيصر ذاته . لقد أنفق شهرين يتنكر فى أساليب الباعة المتجولين ، وبلغ من إتقانه محاكاتهم أن رفاقه زعموا أنه سوف يبيع جياد مركبة « الدوق الأكبر » بعد أن يصرعه !.. ويأخذ عليه « ستيبان » إسرافه فى التندر والأصالة ، وإنشاده أبياتا من شعره العاطفى الأنيق ، وعزمه ـــ إذا خانته يده ـــ على أن يهلك « الدوق الأكبر » بطريقة مضمونة هى أن يلقى بنفسه تحت أقدام الجياد ، أسوة باليابانيين الذين ينتحرون ولا يستسلمون . وفى ذلك يعارضه « ستيبان » قائلا له من أقصى الغرفة :

ـــ إقدامك على الانتحار دليل على الاعتزاز بنفسك ، وليس للثائر الحقيقى أن يحب نفسه .

ـــ الثائر الحقيقى ؟ لماذا تشك فى إخلاصى ؟ هل أنا أسأت إليك فتخاطبنى بهذه اللهجة ؟

ـــ إنى لا أحب أولئك الذين يلحقون بالثوار بحثا عن تسلية .

ويتدخل الرئيس لفض النزاع بينهما ، فيقول « ستيبان » :

ـــ أجل إننى عنيف . ولكن البغض عندى ليس لعبا ولهوا . وما اجتمعنا هنا لنتبادل علائم الإعجاب بأنفسنا ، بل لنفلح فى التـدبير ونصيب المرمى .

ويعاتبه « كالياييف » ـــ يانك ـــ فى رفق :

ـــ لماذا تهيننى ؟ من الذى قال لك إننى كنت أشكو السآمة والملل خارج المنظمة ؟ إنما أنا أحب الحياة يا أخى ، ولقد التحقت بالثورة لأننى أحب الحياة .

ـــ أما أنا فلا أحب الحياة ، بل أحب العدالة التى هى فوق الحياة .

ـــ كل امرىء يخدم العدالة على قدر ما يستطيع . وينبغى أن نتقبل اختلاف طبائعنا ، وأن يحب بعضنا بعضا .

ـــ لا يمكننا ذلك .

ـــ فماذا تفعل إذن بيننا ؟

ـــ لقد جئت لأقتل شخصا ، لا لأحبه وأثنى على اختلاف طبعه عن طبعى .

ـــ ولكنك لن تقتله وحدك ، ولن تقتله بلا معنى . لسوف تقتله

بالاشتراك معنا ، وباسم الشعب الروسى . وهذا هو ما يبررك .

ــ لست فى حاجة إلى تبرير . فلقد تبررت ذات ليلة بلذع السياط فى المنفى . ولن أطيق ..

وهنا يهيب بهما « أنينكوف » أن يثوبا إلى العقل ، وأن يتذكرا أن الجميع فى المنظمة إخوة قد آلوا على أنفسهم أن يتحدوا فى سبيل إعدام الطغاة وتحرير الوطن .

وتعود « دورا » بعد أن سألت بواب المنزل عن رسالة يتوقعونها ، وتقبل على « كالياييف » :

ــ ما خطبك ؟

ــ لقد تصادمنا . إن « ستيبان » لا يحبنى .

ــ إنه لا يحب من الناس أحدا . ولكنه سوف يصبح أطيب نفسا بعد أن تتم الثورة . لا تحزن !

ــ إنى حزين . إنى فى حاجة إلى أن تحبونى جميعا . لقد تركت كل شيء من أجل المنظمة ، فكيف أحتمل أن ينصرف عنى إخوتى ؟ يبدو لى أحيانا أنهم لا يفهمونني . وما ذنبى ؟

ــ بل إنهم يحبونك ويفهمونك . « ستيبان » هو الشاذ .

ــ كلا ، إنهم يحسبوننى مجنونا . ومع ذلك فإنى أومن مثلهم بمبادىء الإصلاح ، وأريد مثلهم أن أضحى بنفسى ، وأستطيع أن أكون مثلهم كتوما فعالا . غير أن الحياة لا تزال تعجبنى ، فإنى شغوف بالجمال والهناء . ولهذا بعينه أكره الاستبداد . كيف عسانى أشرح لهم ؟ إنها الثورة ، نعم ، ولكن الثورة من أجل الحياة ...

هكذا يستبشر الفتى الرقيق ، ويصبو إلى جمال الحياة ونعيم الحب ، ويدعو إلى الخير والتآخى ، فما باله يصر على قتل إنسان ؟ إنه لا يقتل إنسانا بل يريد أن يقتل الاستبداد الذى تجسم فى ذلك الإنسان . إنه لا يعتبر نفسه مجرما آثما ، بل مصلحا يسعى إلى أن يطهر الدنيا — بالقتل — من أسباب القتل . إنه لم يرض الاضطلاع بدور السفاح إلا لتكتسى الأرض من بعده بالأبرياء . ولقد اختار أن يلقى القنبلة لأنه يرى فى تعرضه للخطر ما يكفى لتبريره ، ولأنه يأمل أن يلقى حتفه ، فيصبح موته فى سبيل المثل الأعلى تكفيرا عن ذنبه .

وما أشد ما يطرب عندما تبين له « دورا » — التى تحبه وتعجب به — أنه يضاعف من كرمه إذا لم يمت ساعة الاغتيال مباشرة ، واستطاع أن ينتظر حتى يموت بحبل المشنقة ، فهو على هذا النحو كمن يموت مرتين مقابل ميتة شخص واحد ، ويبيت بذلك فى مصاف الأبرار الذين لا لوم عليهم ولا تثريب . وإنها لتتمنى مثله هذا المصير ..

ويحضر بواب المنزل الرسالة ، فيفضها الرئيس « أنينكوف » ويعلن أن « الدوق الأكبر » سيذهب إلى المسرح فى اليوم التالى ، ويأمر « دورا » إذن بأن تجهز القنبلتين ، كى يلقى بهما « يانك » و « فوانوف » على العربة على التعاقب . وتخرج دورا تتبعها نظرات « يانك » الحانية ، ولا يلبث هذا أن يستدير صوب « ستيبان » قائلا فى وداعة :

— سأقتله .. فرحا !

٢

● وتسفر ستارة الفصل الثانى عن نفس المكان ، فى مساء اليوم التالى . و لم يبق فى وكر الثوار إلا « دورا » ، والرئيس ، الذى يطل من النافذة ويترقب ما يرسل إليه «ستيبان» من إشارات اصطلحا على معانيها. أجل ، إن الأمور فى الخارج على ما يرام : « يانك » فى مكمنه القريب مزودا بقنبلته اليدوية ، وكذلك « فوانوف » من ناحية المسرح .

وها هى ذى مركبة « الدوق الأكبر » تقبل من بعيد ، ويعلو ضجيج ركضها إذ تمر أمام البيت ، ثم تبتعد وتخفت الأصوات . بعد ثوان لا بد أن يدوى الانفجار .. ويصيخان ، غير أنهما لا يسمعان شيئا ! ويطول انتظارهما ... لا شك أن المركبة قد وصلت الآن إلى المسرح ، فما سر هذا السكون ؟ وتؤول « دورا » تلك الظاهرة بأن الشرطة قد ألقت القبض على « يانك » متلبسا ، وتجزع لهذا الخاطر ، وتلتاع :

ـــ أيعتقلونه دون أن يفعل شيئا ؟ لقد كان مستعدا لأن يفعل كل شيء ! كان يريد السجن والمحاكمة .. ولكن بعد أن يقتل « الدوق الأكبر » . ما هكذا ، كلا ، ما هكذا !

وسرعان ما يرجع « فوانوف » ـــ ومعه القنبلة الثانية ـــ حائل الوجه لاهثا . ويستجوبه الرئيس ، غير أنه لا يدرى ماذا طرأ . فلقد كان ينتظر تفجير القنبلة الأولى ، ولكنه شاهد المركبة تجتاز مكمن « يانك » آمنة ، فأخذه العجب ، وظن أن الرئيس قد غير الخطة فى آخر لحظة ، ومضى يعدو نحو المقر ..

ثم يدخل « يانك » هامى الدمع ، ذاهلا ، فيقول :

ــ إخوتى ، اغفروا لى ! لم أستطع .

وتعطف عليه « دورا » وتواسيه ، أما الرئيس فيسأله فى صرامة :

ــ « يانك » ، هل تولاك الخوف ؟



فيصحو الفتى من ذهوله ويحتج :

ــ الخوف ؟ كلا ! وليس لك الحق فى أن تظن بى هذا الظن .

ويطرق الباب طارق بالتوقيع المعهود . إنه « ستيبان » ، الذى يشرح الأمر للرئيس ، دون أن يخلو كلامه من شماتة :

ــ كان فى المركبة طفلان ، هما ابنة وابن أخى « الدوق الأكبر » .

ــ لقد كان مقدرا أن يخرج « الدوق الأكبر » بمفرده ، حسب الأنباء التى استقاها « أورلوف » ..

ــ وكانت معهم « الدوقة الكبرى » أيضا . ويظهر أن هذا العدد قد فاق طاقة شاعرنا . من حسن الحظ أن الجواسيس المبثوثين لم يلحظوا شيئا .

ويواصل الرئيس حديثه مع

« ستيبان » بصوت خفيض ، على حين تستقر الأنظار على « يانك » الذى يرفع عينيه صوب « ستيبان » ، قائلا وكأنه فى حلم :

— ما كنت أتوقع .. كنت أتوقع كل شىء ما عدا الأطفال . هل تأملت طفلا ؟ هل تستطيع أن تحتمل نظرة الطفل البريئة الجليلة ؟.. عندما لاحت المركبة كان قلبى يخفق طربا ، وازداد خفقه باقترابها ، وأنا متلهف إلى أن أثب وأضحك . وبالفعل جريت نحوها . وفى تلك اللحظة رأيتهما .. ولم أر « الدوقة الكبرى » .. لم أر سواهما .. ولست أدرى إذ ذاك ما حل بى . لقد ارتخت ذراعى وارتعدت ركبتاى . وعندما استعدت وعيى كانت المركبة قد فارقتنى .

ويدافع الفتى عن نفسه دفاعا إنسانيا مخلصا :

— لست جبانا . لقد أردت أن أقتل نفسى على إثر هذا الفشل ، بالقنبلة ذاتها . ولكننى عدت إليكم لأقدم إليكم حسابى أولا ، ولأنكم قضاتى ، فاحكموا على أو لى ، أنتم الذين لا تخطئون .

ثم يقترح أن يمضى فيتربص للمركبة فى طريق رجوعها من المسرح ، ويتعهد بأن يبيدها بمفرده ، إذا قررت اللجنة وجوب إعدام الطفلين . فما عليه إلا أن يصدع بالأمر الذى يصدره الإجماع .

ويحتدم الجدل حول تلك القضية الرهيبة . وما العمل ؟ هل ينبغى أن يلقى « يانك » قنبلته هذه الليلة ، قبل فوات الفرصة ؟ لا بد من حسم الموضوع . ويحدد الرئيس وجهة النظر الشكلية ، معترفا بأن المنظمة هى المسئولة عن بلبلة إرادة « يانك » لأنها لم تنبئه بوجود أطفال . ثم يبدى كل عضو رأيه ، فيؤيد موقف « يانك » كل من « فوانوف » و « دورا » ،

ويعارضهما « ستيبان » :

ـــ أتدرون ماذا يعنى هذا القرار ؟ إنه يعنى أننا ضيعنا شهرين من التربص والتدبير بلا جدوى ، وأن رفيقنا « إيجور » قد اعتقل بلا جدوى ، ورفيقنا « ريكوف » قد شنق بلا جدوى ، وأننا ينبغى أن نعيش أسابيع أخرى مرهقة ، يشتد فيها علينا الخطر والسهر والتوتر ، قبل أن تحين الفرصة المواتية .

ـــ إنك لتعلم أن « الدوق الأكبر » سيذهب إلى المسرح مرة أخرى بعد يومين .

ـــ .. بعد يومين يمكن أن يلقى خلالهما القبض علينا .

ويهم « كالياييف » بأن ينطلق بقنبلته ، إلا أن « دورا » تستبقيه ريثما تسأل « ستيبان » :

ـــ هل تستطيع يا « ستيبان » أن ترمى بالرصاص طفلا ، وعيناك مفتوحتان ؟

ـــ أستطيع إذا أمرتنى المنظمة بذلك .

ـــ فما بالك تغمض عينيك ؟

وينكر أولا أنه أغمض عينيه ، ولكننا رأيناه يغمضهما ، ثم يعلل حركته تلك غير الإرادية بأنه إنما أراد أن يتمثل المنظر ويجيب طبقا لما يتمثله .. فتنبهه « دورا » إلى ضلاله :

ـــ افتح عينيك وافهم أن المنظمة سوف تفقد سلطتها وتأثيرها فى الرأى العام إذا تهاونت لحظة واستباحت أن تسحق الأطفال بقنابلها .

ـــ إن قلبى لا يتسع لهذه البلاهات . يوم نعزم على نسيان الأطفال

سوف نصبح سادة العالم وسوف تنتصر الثورة .

ـــ وفى ذلك اليوم ، سوف تبغض الإنسانية جمعاء ثورتنا .

ـــ لا يهمنا غضب الإنسانية علينا ، ما دمنا نحن نحب الثورة حبا يكفى لأن نفرضها على الإنسانية جمعاء ، حتى نخلصها من عبوديتها .

ـــ وإذا رفض الشعب ـــ الذى من أجله نكافح ـــ أن نقتل أطفاله ، هل نضرب الشعب أيضا ؟

ـــ نعم ، إذا اقتضى الأمر ، نضرب الشعب إلى أن يفهم . إننى أنا أيضا أحب الشعب .

ـــ الحب لا يتخذ هذا الوجه .

ـــ ما أنت إلا امرأة ، وصورة الحب لديك صورة تعسة .

ـــ ولكنى أرى العار فى صورته الصحيحة .

ـــ لقد تجرعت أنا العار يوم ضربونى بالسياط .. فأى عار أخشاه الآن ؟

ولا يستطيع الرئيس أن يقر تطرف « ستيبان » ، فيذكره بأن مئات من الإخوة فى الجهاد قد استشهدوا ليعلم الناس أن هناك أشياء غير مشروعة . كلا ، إن الغاية لن تبرر الوسيلة .

غير أن « ستيبان » لا يقتنع ، فهل عساهم يتركون ـــ فداء لهذين الطفلين ـــ ألوفا من أطفال الشعب يموتون جوعا ؟ إذا رضى الثوار أن يعيشوا فى الحاضر وأن يتخلوا عن المستقبل ، فعليهم أن يتبعوا طريق المحبة والإحسان ، لا طريق الثورة التى تريد علاج جميع الأدواء ـــ أدواء الحاضر والمستقبل . ويرمى هذا المتطرف رفاقه بأنهم لا يؤمنون بالثورة

وبحقوقها . فيخرج « كالياييف » من صمته ليرد عليه :

ـــ إننى خجل من نفسى ، ولكنى لن أسمح لك بالاسترسال . أنا ارتضيت أن أقتل لكى أقوض الاستبداد ، لا لأتشيع لمثل تطرفك الذى يبشرنا باستبداد جديد ، إذا استقام له الأمر يوما فإنه خليق بأن يجعل منى سفاحا لا قاضيا .

ـــ سيان أن تكون قاضيا أو سفاحا ، ما دام الغرض هو تحقيق العدل .

ـــ ليس بالعدل وحده يحيا الناس .

ـــ إذا سلبوهم الخبز ، فهل يحيون بغير العدل ؟

ـــ إنهم يحيون بالعدل وببراءة الضمير .

ـــ البراءة ؟ لعلى أعرفها ، ولكنى اخترت أن أتجاهلها ، وأعمل على أن يجهلها الناس حتى يجىء اليوم الذى ينطبق فيه اسمها على معنى أكبر .

ـــ حتى يجىء ذلك اليوم ، الذى يبين لك ولى أيا منا كان على حق ، ربما نضطر إلى أن نضحى بثلاثة أجيال ، بين حروب وثورات طاحنة . ويوم يجف سيل تلك الدماء على الأرض سنكون ـــ أنت وأنا ـــ قد اختلطنا بترابها منذ زمن طويل .

ـــ سوف يخلفنا إذ ذاك غيرنا . وإنى لأحييهم تحية إخوة لنا .

ـــ غيرنا ؟.. إنما أنا أحب هؤلاء الذين يعيشون اليوم على الأرض مثلى ، وهم الذين أحييهم . إننى من أجلهم أناضل وأتقبل الموت . وأما من أجل مدنية مقبلة بعيدة ، لست واثقا من وجودها ، فلن أمضى لألطم إخوتى . لن أضيف إلى الجور الذى شب ، جورا لم يولد .. ماذا عسى أن يقول أبسط فلاحينا فى هذا المقام ؟ سيقول إن قتل الأطفال عمل يخل

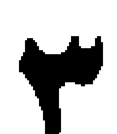
بالشرف . ولو قدر لى أن أعيش وأرى الثورة تنصرف عن الشرف ، فلسوف أنصرف عنها ..

ويحتد الجدل بين « يانك » و « ستيبان » ، فيلفت الرئيس نظر الأخير إلى أن الأغلبية لا ترى رأيه . ويرضخ « ستيبان » وهو يحتج قائلا : « ومع ذلك فالثورة لا تناسب رقاق النفوس . إننا قتلة ، وقد اخترنا أن نكون قتلة . » .

فيصيح « يانك » : « كلا . إننى اخترت أن أموت لكى لا يسود القتل والاغتيال . إننى اخترت أن أكون بريئا . » .

على المنظمة إذن أن تنتظر يومين وأن تتأهب لإعادة الكرة . وينصت الجميع عندما تمر فى الشارع مركبة « الدوق الأكبر » ، إلى أن يخفت ضجيجها . ثم يقول « فوانوف » لـ « دورا » : « فلنبدأ من جديد .. » .

ويردف « ستيبان » ، فى ازدراء : « نعم ... فى سبيل الشرف ! » .



● ويجمعنا الفصل الثالث بالثوار فى وكرهم مرة أخيرة قبيل تنفيذ المؤامرة . ولكن أين « فوانوف » ـــ الذى سيلقى القنبلة الثانية بعد « يانك » ؟ ـــ إنه فى حاجة إلى شىء من الراحة والنوم ، كما يقول الرئيس ، ولا بأس عليه ، فما زالت أمامه فسحة من الوقت تقارب نصف ساعة .

ها هو ذا يدخل ، بيد أنه لم يفلح فى انتجاع الراحة ، بل و لم ينم طيلة الليلة البارحة . وإذ يسأل أن يختلى بالرئيس ليفضى إليه بأقوال خاصة ، يخرج الآخرون . ويحاول أن يتكلم وقد انفرد بأنينكوف ، غير أن الخجل يعقد لسانه . فيستجوبه الرئيس :

ـــ ألا تريد أن تلقى القنبلة ؟

ـــ لن أستطيع .

ويعترف باستحيائه من القيام بهذا العمل ، وبخوفه أيضا . فما باله قد انطلق أمس الأول لتفجير القنبلة ذاتها متهللا قوى العزيمة ؟ لقد كان فى حقيقة الأمر يجاهد نفسه ، وقبع فى مكمنه ينتظر المركبة وهو منقبض الفكين ، متوتر الفرائص ، يهيب بشجاعته ويشحن بها قلبه شحنا ، ثم لاحت المركبة وسرعان ما مرت به وخلفته ، فأدرك إذ ذاك أن « يانك » لم يقذف قنبلته ، واستولت عليه قشعريرة رهيبة ، وسرى فى أوصاله برد لم يفارقه منذ تلك اللحظة . وعبثا يهون الرئيس عليه ، ويؤكد له تارة أن دبيب الحياة لا بد أن يعود إلى الجسم الحى ، ويعرض عليه تارة أخرى أن يعدل عن إلقاء القنبلة وأن يرحل للاستجمام شهرا فى ربوع فنلندا ثم يؤوب نشيطا لاستئناف الإرهاب ..

ـــ كلا . إنى إذا لم ألق القنبلة الآن ، فلن ألقيها أبدا .

ـــ لماذا ؟

ـــ إننى لا أصلح للإرهاب . لقد ثبت لى هذا . ومن الخير أن أغادر صفوفكم ، وأن أجاهد فى لجان الدعاية .

ـــ ستتعرض فيها لنفس الأخطار .

ـــ نعم ، ولكن المرء يستطيع أن يعمل بها وهو مغمض العينين ، يجهل الأهوال الفاجعة .

ويتدفق كالمحموم يشرح وجهة نظره : فما أيسر الاجتماعات والمناقشات ، وإبلاغ القرارات إلى اللجان التنفيذية ، إذا قورن هذا كله بوقوفك بين إخوتك من أبناء الشعب وهم يحثون خطاهم فى المساء ليجدوا فى بيوتهم العشاء الساخن وحنان الزوجة وأنس الأولاد ، وأنت صامت كتوم جامد ، تشد ذراعك إلى الأرض قنبلة ثقيلة ، وتحصى الدقائق والثوانى لتوقيع حركة مرهقة .. إن السجن ، بل والموت ، لأخف وطأة على نفسه من أن يحمل حياته وحياة شخص آخر فى يده التى تقبض على القنبلة ، وأن يخوض بهما أوار اللهيب ! وهو على كل حال يريد أن يكفر عن ذنبه بأن يتقبل فى تواضع حدود مقدرته ، وأن يخدم الثورة ولو فى مكان الضعفاء .

ويعفيه الرئيس من العمل . ويفضل الفتى الرقيق أن ينصرف دون أن يودع زملاءه ، فهو لا يقوى على أن ينظر إليهم . ثم يضيف :

ـــ قل لـ « يانك » إن انهيارى ليس نتيجة لتردده ، وإننى أحبه ، كما أحبكم جميعا .

ويعانقه « أنينكوف » قائلا :

ـــ وداعا أيها الأخ . سوف ينتهى كل شىء ، وسوف تسعد روسيا .

ويخرج « فوانوف » ، وكأنه يلوذ بالفرار ، وهو يقول :

ـــ أى نعم .. لتسعد ! لتسعد !

ويعلن الرئيس للأعضاء رحيل رفيقهم ، وإنه هو الذى سيلقى القنبلة

بدلا منه ، بينما يحل محله فى الرئاسة « ستيبان » ريثما يعود بعد مصرع « الدوق الأكبر » — إذا قدر له الإفلات من الشرطة — ويحاول « ستيبان » أن يكون هو قاذف القنبلة ، حتى يصب معها نقمته على الطاغية ، ولكن الرئيس الحازم لا يرجع عن قراره ، بل يخرج مع « ستيبان » إلى حيث يسلمه التعليمات الأخيرة .

وهنا يجلس « يانك » ، وتقترب منه « دورا » . ويتحدثان فى أسى عن « فوانوف » ، فتقول « دورا » :

— سوف يعود .

— لا . لو كنت فى مكانه ، لغمرنى اليأس .

— والآن ، ألا يتطرق إليك اليأس ؟

فيجيب فى حزن :

— الآن .. إنى معكم ، وإنى سعيد كما كان هو من قبل .

— فلماذا أراك كاسف البال ؟ لقد مضيت أمس الأول مشرق الوجه طروبا . واليوم ..

— اليوم أعلم ما لم أكن أعلم . لقد كنت أحسب أن القتل شيء سهل ، تكفى فيه الفكرة والشجاعة . ولكنى لمست أنه لا سعادة مع البغض . كل هذا الشر .. هذا الشر فى نفسى وفى نفوس الآخرين .. اغتيال ، وجبن ، واعتداء ! .. أوه ، بل ينبغى أن أقتله .. غير أننى سأواصل السير إلى النهاية ، إلى ما وراء البغض !

— وماذا وراء البغض ؟ لا شيء .

— هناك الحب .

ـــ ليس الحب هو اللازم .

ـــ كيف تقولين هذا يا « دورا » ، وأنا أعرف قلبك ؟

ـــ لقد كثر سفك الدماء حولنا ، واشتد العنف . ولا حق فى الحب لمن يخلصون للعدالة ، وإنما عليهم أن يكونوا مثلى ، فأنا مرفوعة الرأس ، ثابتة العينين . وأين مكان الحب فى القلوب الشماء ؟ إن الحب يحنى الرؤوس فى رفق ، أما نحن فقد تصلبت أعناقنا .

ـــ إنما نحن نحب شعبنا .

ـــ أجل ، إننا نحبه .. حبا تعسا . فنحن نعيش فى عزلة عنه ، رهن أوكارنا وأفكارنا . والشعب ، أتراه يحبنا ؟ وهل يدرى أننا نحبه ؟ إن الشعب صامت . ويا له من صمت !

ـــ بل إن ذلك هو الحب : إعطاء كل شىء ، وتضحية كل شىء ، دون مقابل .

ـــ ربما . ذلك هو الحب المطلق ، الذى ينطوى على نفسه ، والذى يلتهمنى .. إلا أنى أتساءل أحيانا : أليس الحب شيئا آخر ، غير حديث المرء المتواصل مع نفسه ؟ أليس له أن يكون جوابا نتلقاه ممن نحب ؟ إننى أتخيل هذا .. أتخيل الشمس تسطع ، والرؤوس تنحنى فى رفق ، والقلب يخلع كبرياءه ، والأحضان تنفتح . آه ! « يانك » .. ليتنا نستطيع ـــ ولو ساعة واحدة ـــ أن ننسى بؤس العالم المستحكم وننقاد لما نهوى .. هل يخطر لك ذلك ؟

ـــ نعم يا « دورا » . ذلك اسمه الحنان .

ـــ إنك تحدس كل شىء يا حبيبى . ولكن ، هل تعرف الحنان حقا ؟ هل تحب العدالة وأنت تحنو ؟

فيصمت الفتى ، وتسترسل صاحبته :

ــ هل تحب شعبنا بعواطف الرحمة والود ، أم بغلة الثأر والثورة ؟

ولا يخرج عن صمته ، فتردف سائلة بصوت خفيض :

ــ وأنا ، أتحبنى بحنان ؟

فينظر إليها وما زال صامتا ، ثم يجيب :

ــ لن يحبك امرؤ مثل ما أحبك .

ــ أعرف هذا . ولكن أليس خيرا أن نحب كما يحب الناس ؟

ــ إننى لست كسائر الناس . فأنا أحبك كما أنا .

ــ أتحبنى أكثر مما تحب العدالة ، وأكثر مما تحب المنظمة ؟

ــ أنا لا أفضل بينك وبين المنظمة والعدالة .

ــ أجل ، ولكنى أناشدك أن تجيبنى : أتحبنى فى وحدتك حب الحنان ، حب الأنانية ؟ أتحبنى غير عادلة ؟

ــ لو كنت غير عادلة وأحببتك ، فإننى فى هذه الحال لا أحبك أنت .

ــ إنك لا تجيب . قل لى فقط : هل كنت تحبنى ، لو لم أكن بين أعضاء المنظمة ؟

ــ فأين عساك أن تكونى ؟

ــ أيام دراستى ، كنت طالبة مرحة حسناء ، وكنت أقضى الساعات الطوال أتنزه هائمة حالمة . هل تحبنى خفيفة غير مبالية ؟

ويتردد « يانك » ، ثم يقول هامسا :

ــ بودى أن أقول لك : نعم .

فتهتف به « دورا » ، وقد انتصر قلبها :

ـــ إذن فقلها . قل « نعم » يا حبيبى إذا كنت ترى أن ذلك هو الحق .
« نعم » فى وجه العدالة ، وأمام بؤس الشعب المكبل .. « نعم » ، « نعم » ، رغم احتضار الأطفال ، وضرب السياط ، وشنق الرقاب ..

وتنطلق كالطائر الأسير من قفصه ، ويعلو صوتها إلى حد الصياح ، وهى تريد أن يسمعها حبيبها ، وأن يكون إليها دعاؤه ، فوق عالم قد باء بالشر والجور .. فينهرها « يانك » :

ـــ اسكتى ! إن قلبى لا يحدثنى إلا عنك . ولكنى بعد لحظات لا يجوز لى أن أضطرب .

فتثوب إلى وعيها ، وتتذكر المؤامرة ، وتنفجر ضاحكة وكأنها تشهق بالبكاء ، وتعتذر بأن التعب هو الذى دفعها إلى الهذيان ، وتعترف بأن دفء الحنان حرام عليهم ، ثم تشيح بوجهها شاكية راثية :

ـــ رحمتاه للأبرار !

فينظر إليها متحسرا ويقول :

ـــ ذلك ما قسم لنا ، فالحب مستحيل علينا . ولكنى سأقتل « الدوق الأكبر » ، وإذ ذاك يحل السلام ، فتنعمين به وأنعم .

ـــ السلام ؟ ومتى نجده ؟

ـــ غدا .

ويدخل « أنينكوف » و « ستيبان » . لقد حانت ساعة التنفيذ ، فيتنفس « يانك » الصعداء ، ويفارق صاحبته دون أن يقبلها . إنها قريبة منه ، ولكنهما لا يتلامسان :

ـــ وداعا « دورا » !

— لن أقول وداعا ، بل إلى الملتقى . فلسوف يجتمع شملنا .

وتملأ عينيها الدموع ، وهى جامدة تنظر إلى الباب الذى خرج منه ، بينما يقول « ستيبان » :

— ما أروع انتصابه فى مشيته ! لقد كنت مخطئا حين شككت فى عزيمة « يانك » . ولكن حماسته لم تكن تعجبنى .. إن روحه ضعيفة ، ويده قوية . إنه خير من روحه . لا بد أنه سيقتل « الدوق الأكبر » ، بل وسيبيده .

ويتحدث « ستيبان » بلغة الحقد الذى يأكل قلبه ، فلا تجيبه « دورا » ، وإنما تلوذ بالصمت . ولكى يدفعها إلى الكلام ، يسألها :

— أتحبينه ؟

— ليس لنا فى الوقت فسحة للحب ، فوقتنا لا يكاد يتسع إلا للعدالة .

— أصبت . ينبغى أولا تدمير هذا العالم ومحقه ..

غير أن « دورا » تقارن بينه وبين « يانك » ، فتلومه على استسلامه للضغينة . وإذا بستيبان — بعد أن يقاوم سخطه لحظة — ينفجر منددا بالحب ، مكشرا عن أنياب حقده ، وإذا به يشق قميصه ، ويكشف لها عن صدره وهو يصيح :

— انظرى ! هذه آثار السياط ! هذه آثار حبهم !.. هل تحتقريننى الآن ؟

وتتراجع « دورا » مرتاعة ، ثم تدنو منه فجأة وتقبله ، قائلة :

— ومن يحتقر الألم ؟ إنى أحبك أيضا .

ويلتمس « ستيبان » العذر لعنفه بطول الجهاد وقسوة المنفى ، وبآثار

السياط هذه التى لا يستطيع أن يغتفرها ، فهو عاجز عن الحب .

وتدق الساعة السابعة ، فيتجهان إلى النافذة ويتطلعان . ولا نلبث حتى نسمع من بعيد ركض مركبة مقبلة . ويخفت صوت المركبة ، ثم يدوى انفجار هائل . فتثب « دورا » ، وتخفى وجهها فى كفيها . إنه انفجار واحد ، أى أن « أنينكوف » لم يلق القنبلة الثانية . ويتهلل « ستيبان » :

— لقد أصابه « يانك » ! مرحى ! مرحى أيها الشعب!

وترتمى عليه « دورا » باكية ، تردد :

— إننا نحن الذين قتلناه ! أنا التى قتلته !

— قتلنا من ؟ أتعنين « يانك » ؟

— بل « الدوق الأكبر ».

وينتهى الفصل بهذه العبارات الموجزة العميقة التى يختلط وراءها الرثاء للجانى والمجنى عليه ، ويلتقى فى نبراتها تكبير الشماتة وتقريع الضمير .

٤

● وينقلنا الفصل الرابع إلى سجن (بوتيركى) ، بعد انقضاء أسبوع . ونرى « يانك » فى زنزانته ، ينظر إلى الباب ، الذى يفتحه الحارس ويدخل منه ، ومعه سجين يحمل دلوا لتنظيف المكان . ويدور بين السجين الشيخ وبين « يانك » حوار غريب . يسأله الفتى :

— ما اسمك أيها الأخ ؟

ــ « فوكا » .

ــ ولماذا سجنوك ؟

ــ قتلت .

ــ لأنك كنت جائعا ؟

ــ لا . لأنى كنت عطشان ، فشربت ، وقتلت بالفأس ثلاثة .

ويتفرس فيه « يانك » ، صامتا . فيسأله المذنب :

ــ هل تجفل منى ؟

ــ لا . لقد قتلت أنا أيضا .

ــ كم ؟

ــ واحدا .

ــ بسيطة ! لا بأس عليك .

ــ لقد قتلت « الدوق الأكبر ، سيرج » .

ــ « الدوق الأكبر » ؟.. إنك من الأعيان !.. وهل عقوبتك شديدة ؟

ــ شديدة . ولكن ، كان لا بد من قتله .

ــ لماذا ؟ هل أنت من أهل البلاط ؟.. لا شك أنك قتلته من أجل امرأة ، أليس كذلك ؟ فإنك شاب وسيم ..

ــ إننى اشتراكى ثائر .

ولا يفهم هذا الفلاح ما الذى دفع « يانك » إلى القتل ، لا سيما وهو من أبناء طبقة راقية تتمتع بنعيم الحياة وتمتلك الأرض . فيشرح له الفتى :

ــ إنما الأرض لك . ولقد كثر البؤس فكثرت الجرائم . ويوم يقل

البؤس ، سوف يقل الإجرام . ولو كانت الأرض حرة ، لما كنت أنت هنا .

ـــ حرة أم غير حرة ، لا يجب أن يسرف المرء فى شرب الخمر .

ـــ أجل ، ولكن المرء يشرب لأنه يشعر بالهوان ويريد أن ينساه . لسوف يأتى عهد لا يمتاز فيه غنى على فقير ، بل سنكون جميعا إخوة ، وستجعل العدالة قلوبنا ناصعة شفافة .

ـــ وماذا يصنعون بالذى يقتل « دوقا أكبر » ؟

ـــ يشنقونه .

فينصرف السجين الشيخ عن « يانك » ، بينما يغرق الحارس فى الضحك . ويا هول ما يقف عليه « يانك » ، عندما يستجوب هذا السجين عن سر نفوره ! ذلك إنه هو المكلف بشنق المحكوم عليهم بالإعدام ، ومقابل قيامه بعمل الجلاد ، يخففون عقوبته :

ـــ عن كل شخص أشنقه ، يخصمون من مدة سجنى سنة . إنها عملية مربحة !

ـــ ألكى يغفروا جرائمك ، يدفعونك إلى اقتراف جرائم أخرى ؟

ـــ هذه ليست جرائم ، ما دام محكوما عليهم بالشنق .

ـــ وكم مرة فعلت ذلك ؟

ـــ مرتين .

فيتراجع « يانك » .. ويخرج الحارس و« فوكا » . ويدخل « سكوراتوف » ، رئيس الشرطة . ونعلم أنه هو الذى أرسل « فوكا » للتأثير على أعصاب « يانك » . ولكنه يظل رابط الجأش ، ويلتزم

الصمت العيوف إزاء هذا الثرثار الأنيق الذى يحتال لينتزع منه اعترافا .

ـــ جئت أقدم لك الوسيلة التى بها تنال العفو .

ـــ إنى أرفض عفوكم .

ـــ اسمع لى على الأقل : قد تكون محقا فى أفكارك ومبادئك ، ما عدا جناية الاغتيال ..

ـــ إنى أنهاك عن استخدام هذه الكلمة ! فأنا أسير ، لا متهم .

ـــ ولكن هناك إضرارا ، أليس كذلك ؟ دعنا من منصب « الدوق الأكبر » ومن السياسة ، ألا تجد أن النتيجة هى مقتل إنسان ؟

ـــ لقد ألقيت القنبلة على طغيانكم ، ولم ألقها على إنسان . لقد نفذت فيه حكما صدر عليه .

ـــ تريد أن تقول إن « الدوق » لم تقتله قنبلة ، وإنما قتله مبدأ . ولكنك أنت الذى أطحت برأسه ، فأنت فى حاجة إلى العفو عن شخصك .

ـــ شخصى أرفع من منالك وأرفع من سادتك . إنكم تستطيعون أن تقتلونى ، لا أن تدينونى . أراك تبحث عن نقطة ضعف عندى ، لتدفعنى منها إلى الشعور بالعار وإلى الندم والبكاء . هيهات ! ليس لكم شأن بشخصى ، وإنما لكم بغضى كله وبغض إخوتى .

وإزاء تشبث المجاهد الصالح بمبادئه ، وتكتمه على إخوانه ، يأتيه الرجل الداهية عن طريق قلبه ، ويقرعه قائلا :

لقد أمكن للمبادئ أن تقتل « الدوق الأكبر » ، ولكنها عجزت عن قتل الأطفال . فهل تستحق هذه المبادئ العاجزة أن نقتل من أجلها « الدوق الأكبر » ؟

ويهم « يانك » بأن يجيب ، فيقاطعه رئيس الشرطة :

— سوف تفضى بجوابك للدوقة الكبرى .

— « الدوقة الكبرى » ؟

— نعم . زوجته . إنها تريد أن تحدثك ، وأن تحولك عن رأيك ، لأنها سيدة تقية .



— لا أريد أن أقابلها .

غير أنه لا يلبث حتى تدخل عليه « الدوقة الكبرى » تجللها ملابس الحداد ، ويتصبب فى كلامها الأسى . إنها تقول له :

— أظن أنك مثلى . فأنا أتألم ، ولا أستطيع أن أنام . ولن أجد من يحدثنى عن الجريمة خيرا من القاتل .

— أية جريمة ؟ إنى لا أذكر سوى تنفيذ حكم عادل .

— ما أشبه صوتك بصوته ، عندما كان يقول : « هذا عدل » ! لقد كان يقضى بين الناس ، ولعله كان يخطىء مثلك أحيانا ..

— لقد كان يمثل الظلم الذى يئن منه الشعب منذ أجيال ، وكان مقابل ذلك يتمتع بامتيازات . أما أنا ، فإذا كنت قد

أخطأت ، فالسجن والموت هما أجرى .

وتفطن المرأة إلى أنه مرهف الضمير ، فتنكأ جرحه بوصف الفقيد فى ساعاته الأخيرة ، وكيف كان إنسانا عاديا ، ثم تحاول أن تشككه فى براءة الطفلة التى تورع عن قتلها ، وتخلص من ذلك إلى أنه إنسان خاطىء ، تعوزه رحمة الله :

ـــ هل لك أن تصلى إلى الله معى ، وأن تتوب توبة نصوحا ؟

ـــ دعينى أستعد للموت . إننى إذا لم أمت ، أصبحت فى عداد السفاحين .

وتستلينه بالعطف عليه ، فلا يلين :

ـــ إنك عدوتى . وأبشع من الجريمة يا سيدتى أولئك الذين يدفعون إلى الإجرام بريئا .. وما أشد سعادتى حينما أصعد إلى حبل المشنقة وأنصرف عن عالمكم القبيح ، وأستسلم للحب الذى يملؤنى .

ـــ ما هو هذا الحب الرهيب ؟

ـــ إن الحياة عذاب ما دامت تفصل بين بعضنا وبعض . وقد يتاح للأحباء أن يجمع شملهم حبل المشنقة .

وندرك أنه يفكر فى « دورا » .. وإذ تقول له الدوقة الكبرى : « لقد كنت أحب الرجل الذى قتلته » ، يغفر لها إيلامها إياه بهذا الحديث . وينتهى اللقاء بإصرارها على أن تطلب له العفو من الله ومن الناس ، وبإصراره على رفض ذلك العفو .

ويعيد الكرة رئيس الشرطة ، إلا أنه لا يفلح فى تهديد الفتى بعزمه على أن ينشر فى الصحف اعترافات ينسبها إليه حتى يظن رفاقه أنه قد خانهم .

ــ لن يصدقوكِ .
ــ لماذا ؟ ألم تتسرب إلى نفوسهم خطيئة ؟
ــ إنك لا تعرف حبهم !

٥

● **ويعود** بنا الفصل الخامس إلى الثوار ، فى وكر هم جديد ، وقد أظلم الليل . وفى السكون المطبق ، نرى « دورا » تذرع الغرفة بخطوات تنم عن الاضطراب والتلهف . ثم يقرع الباب بالاصطلاح المعهود ، فيفتح الرئيس ، ويدخل « ستيبان » ومعه « فوانوف » . ويلقى « ستيبان » آخر الأنباء التى استقاها من رفيقهم « أورلوف » ، الذى استدعى هذا المساء إلى السجن بوصفه ضابطا ، مما يوحى بأن إعدام « يانك » سينفذ الليلة .

ويتعلل الرئيس بأن القيصر قد يصدر عفوه عن « يانك » . غير أن عفو القيصر لا يكون إلا جوابا لطلب يتقدم به المحكوم عليه ، و« دورا » تؤكد ــ رغم ما أشاعته الصحف ــ أن « يانك » لم يستجْدِ العفو . وهى تستمد يقينها هذا من أقوال التحدى الرائعة التى أدلى بها فى المحكمة ، ثم تصيح فى وجه رفاقها :

ــ افرحوا ، فلسوف يموت !

وينتهرها « أنينكوف » ، فتسترسل :

ــ بلى ! لو عفى عنه ، لصدقت رواية « الدوقة الكبرى » التى تصمه

بالندم والخيانة . وأما إذا مات فسوف تصدقونه وتحبونه .. آه ، ما أغلى ثمن حبكم !

وهنا يطمئنها « فوانوف » بأنه لم يشك لحظة فى « يانك » ، بل وما دفعه إلى اللحاق بهم لاستئناف الجهاد سوى عبارات « يانك » الكريمة أمام قضاته ، فلقد قال : « ستكون ميتتى هى احتجاجى الأكبر على عالم الدمع والدم ، وهى التى ستكلل عملى بنقاء المبدأ الخاص » .

ويخرج الرفيقان لملاقاة « أورلوف » ، ويبقى الرئيس و« دورا » التى لا تملك نفسها :

ـــ الموت ! المشنقة ! آه !

ـــ نعم ، أيتها الاخت . ذلك هو الحل الوحيد .

ـــ لا تقل هذا ! إذا كان الموت هو الحل الوحيد ، فإننا لسنا على الطريق القويم ، لأن الحق طريق ينبغى أن يؤدى إلى الحياة وإلى النور ..

ـــ طريقنا أيضا يؤدى إلى الحياة .. حياة الآخرين .

ـــ حياة أحفادنا ، نعم .. ولكن « يانك » فى غيهب السجن ، وحبل المشنقة بارد .. ولعله قد مات الآن ، بينما يعيش الآخرون !.. وإذا لم يؤد موته إلى حياة الآخرين ، وكان شنقه عبثا ؟

ـــ اسكتى !

إنها تحس بالبرد يسرى فى أوصالها ، رغم فصل الربيع ، وبأنها هى التى تتجرع كأس الموت . ثم تنقد مبدأ الهدم والتقتيل ، وتفضى للرئيس بشك يساورها :

ـــ هل نحن على يقين من أن خلفاءنا سيقفون عند الحدود التى

فرضناها على أنفسنا ؟ إننى عندما أسمع « ستيبان » أحيانا ، يتولانى الخوف . فلربما يأتى بعدنا من يتخذوننا أسوة لكى يقتلوا الناس ، ولكنهم لا يدفعون حياتهم ثمنا .

ـــ ذلك هو الجبن ، يا « دورا » .

ويصطرع فى قلبها الحب والموت . وتتمثل « يانك » فى فناء السجن ينتظر لحظة إعدامه ، وتسأل « أنينكوف » :

ـــ كيف بشنقون شخصا ؟

ـــ فى طرف حبل .

ـــ ويثب الجلاد فيهوى بيديه على كتفى المشنوق .. وتنفصم الرقبة .. أليس هذا رهيبا ؟

ـــ بلى . رهيب من ناحية ، ولكنه سعادة من ناحية آخرى .

ـــ سعادة ؟

ـــ سعادة الإحساس بيد إنسان قبل أن نموت .

وهاهما ذان الرفيقان يعودان بالأنباء . يدخلان واجمين ، فتترنح « دورا » ، ويقول « ستيبان » بصوت خفيض :

ـــ « يانك » لم يخن .

وتلح « دورا » فى استقصاء تفاصيل المشهد ، كما رواه « أورلوف » :

لقد أبلغوه الأمر فى الساعة العاشرة ، وشنقوه فى الثانية صباحا ، ولم ينبس بكلمة طوال ساعات الانتظار الأربع . وأتوا به فى الزى الأسود ، وكان الليل حالكا ، والجليد فى فناء السجن قذرا . ولم يرتعد ..

ويعقد التأثر لسان « ستيبان » ، ويبكى « أنينكوف » ، فتتولى « دورا » إتمام الوصف ، وكأنها كانت شاهد عيان ! لقد رأت « يانك » يتقدم إلى المشنقة بخطوات ثابتة ، ورأته يموت سعيدا ، يتلقى السعادة مع الموت .. ثم تهيب برفاقها فى شرود :

ـــ لا تبكوا ! هذا هو يوم التبرير . إن « يانك » ليس مجرما منذ اليوم . لقد استعاد فرحة الطفولة . هل تتذكرون كيف كان يضحك ؟ إنه يضحك الآن ، وهو منكفىء على الأرض !

وتقترب من الرئيس ، ترجوه أن يأذن لها بإلقاء القنبلة التالية ، فيعترض قائلا :

ـــ إنك لتعلمين أننا لا نريد أن نضع النساء فى الصف الأول .

فتصرخ ثائرة :

ـــ وهل أنا الآن امرأة ؟

وينظرون إليها جميعا ، صامتين . ثم يتوسل « فوانوف » و « ستيبان » إلى الرئيس لكى يقبل طلبها ، فيقول « أنينكوف » :

ـــ لقد كان هذا هو دورك يا « ستيبان » .

ـــ إنى أنزل لها عنه . فهى الآن تشبهنى .

ويوافق الرئيس . وتتخيل « دورا » أنها تلقى القنبلة ، ثم تخاطب حبيبها وهى تنتحب :

ـــ « يانك » ! ذات ليلة باردة أيضا .. ونفس المشنقة ! لسوف يكون كل شىء أيسر .

———


UN SOGNO
E FORSE NO
DI
L. PIRANDELLO
المرأة..
بين الحلم والواقع!
تمثيلية رائعة للكاتب الإيطالي الأشهر
لويجي بيرانديللو

(أوديب الملك)

خفقة السراج قبل أن ينطئ .

● لا يمارى أحد فى أن الكاتب الإيطالى الكبير « لويجى بيرانديللو » من أعظم كتاب التمثيليات فى عصرنا هذا ، لا فى إيطاليا وحدها ، بل فى العالم كله ..

ولعلك لمست هذا فى مسرحية « الحياة نفاق » أو « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » ، التى قدمتها لك قبل الآن .

.. أما المسرحية التى أقدمها لك اليوم ، فتعتبر نوعا جديدا فى أدب التمثيليات .. فهى من فصلين يكادان أن يكونا فصلا واحدا ، إذ لا فرق بينهما مستتر ، وإنما يفصل بينهما توزيع الأضواء على المسرح .. كما أنها تكاد تدور بين شخصيتين اثنتين ، وتكاد تكون صورتين مختلفتين لامرأة ..

وربما كانت هذه المسرحية آخر أعمال الأديب الكبير ، إذ كتبها فى اليوم الأخير من عمره ـ سنة ١٩٣٦ ـ حين بلغ التاسعة والستين . وفيها ـ مع هذا ـ تألق فى الفن ، ورسوخ فى التعبير ، يشبه خفقة السراج وقد أوشك أن ينضب !

* * *

ترفع الستار عن حجرة يخالها المرء فى البداية حجرة نوم . ثم لا يلبث أن يتبين أنها حجرة « صالون » .. وقد استلقت السيدة الشابة على أريكة وثيرة فيه . أما سائر ما فى الحجرة ، فلا تتبينه بوضوح ، لأن الظلام يسود المكان ، فلا يكاد يبين فيه سوى نور خافت أخضر اللون ، ينبعث من الأرض أمام الأريكة مباشرة . **وعلى هذا الضوء يستطيع مدير المسرح أن يطلعنا على ما سيدور فى رأس هذه السيدة النائمة .. وهى تحلم !..** ذلك لأن المكان يبدو حجرة نوم ، طالما هى نائمة تحلم ، فإذا استيقظت ، وأضيئت الأنوار ، تجلت الحجرة على حقيقتها .. حجرة استقبال .. « صالون » !

وعلى هذا النور الأخضر ، نتبين إلى يمين الحجرة نافذة تطل على حديقة على شاطئ البحر .. وإلى يسار الحجرة مرآة تحتها « كونصول » . وفى مواجهة المسرح باب ..

وترفع الستار ، وليس يضيء المكان سوى ذلك الضوء ، الذى يكشف لنا عن يد ترتفع من وراء الأريكة .. يد ضخمة ، يضاعف الضوء من حجم ظلالها .. **ثم ترتسم — وسط الظلام المحدق — صورة إنسان يقف عند رأس الشابة النائمة ، وقد اضطرب شعره ، وأطلت من عينيه نظرة قاسية متوعدة .. فهو من صور الكابوس ، وإن كان يرتدى ثياب السهرة !**

ثم يتجه الضوء شيئا فشيئا إلى وجه النائمة ، فإذا بها تفتح عينيها ، وقد تقلص وجهها .. وما أن تنظر إلى الرجل ، حتى يبدو عليها أنها تتذكر — شيئا فشيئا — أحداثا سابقة .. والرجل صامت لا يتكلم ولا يتحرك !

هى : أهذا أنت ؟.. كيف استطعت الدخول ؟

ويضع الرجل يده فى صداره ، فيخرج مفتاحا صغيرا يريها إياه ، ثم يرده إلى جيب صداره دون أن يقول شيئا .

هى : أوجدته أنت ؟.. هذا ما ظننته . لا بد أنه سقط من جيبى بعد أن أخذته منك ، جزاء ما أبديت من رعونة فى المرة الأخيرة .. ثم سقط من جيبى حينما قفزت من مكانى

* * *

ويحدجها الرجل بنظرات صارمة ، فلا تلبث أن توجس خيفة ، وتسأله : « لماذا تنظر إلى هكذا ؟» . فيجيبها : « لا شىء !» . ويجلس بجوارها وقد وضع إحدى ذراعيه خلفها على ظهر الأريكة ، ويده الأخرى على معصمها ..

هو : (**ناظرا إليها بهيام**) لا أستطيع أن أبتعد عنك طويلا ، فأنا لا أعيش إلا حينما تكونين بقربى هكذا .. أشم عبير شعرك ، ورائحة جلدك النضر ، والعطر الذى يتضوع من كل كيانك .. إنك كل حياتى .. كلها لا استثناء !

وتنهض السيدة مغضبة ، وتتمشى أمامه ضيقة الصدر بهذا الحديث المعتاد .. ثم تجلس بعيدا عنه ، وتعتمد رأسها بين يديها كمن لا تدرى كيف تخرج من هذا المأزق ، فيبتسم الرجل ابتسامة حزينة .

هو : (**فى قنوط**) الحب لا يأتى غضبا .. لا الرجل يستطيع أن يرغم امرأة ، ولا المرأة تستطيع أن ترغم رجلا على الاستجابة لحب نضب معينه .. على أنه من الواجب أن

تتوفر الشجاعة على المصارحة — على الأقل — لتقولى لى : « لم أعد أحبك » !

هى : كم من مرة منعت نفسى عن مصارحتك ، شفقة عليك ..

هو : إن المرأة التى تسكت بداعى الشفقة ، امرأة خادعة . فإن وراء هذه الشفقة المزعومة تكمن دائما مصلحة نفعية لها ، فإن لم تكن هناك منفعة ، فلا بد أن تكون الشفقة زائفة !.. شفقة مفضوحة لا جدوى منها ، وحيلة مكشوفة لا تنطلى على أحد !.. لماذا ؟.. لأن من يكون صادق الحب ، يشعر على الفور أن حبيبه لم يعد يكن له الحب حقا .. إنه يشعر بذلك حتما ، ولكنه قد يكتم فطنته ويداريها : وفى هذه الحالة يكون خائنا ، وتكون العلاقة بينهما — بعد ذلك — شيئا حقيرا قذرا .. **فالشفقة الصادقة يجب أن تكون سافرة ، لا تتستر وراء الحب .. يجب أن تكون كالصدقة تمنحها السيدة للمتسول بصراحة ، دون أن توهمه بأنها تحبه .. وإلا لكان الجزاء الحق لتلك الصداقة قبلة على الثغر ، وليس دعاء بالخير !**

هى : ها ها !.. لكم يكون مضحكا منظر متسول يقبل بهيام فم المحسنة التى تعطيه صدقة !

هو : (**مستطردا**) وهو لا يفعلها إلا إذا تأوهت المحسنة بهيام ، وهى تدس الصدقة فى كفه !.. إن الإخلاص والصدق دين مقدس لا بد لنا من الوفاء به .. لأنفسنا

ولسوانا . فالخيانة شيء فظيع .. فظيع .. فظيع !

هي : وكيف أمكنك أن تشك فى إخلاصى أيها العزيز ؟

هو : لأن عندى كل مبرر لهذا الشك !. (**وينهض فيفتح النافذة ، ويطل منها .. وينساب صوت هدير البحر إلى الحجرة**) أتذكرين ؟

هي : أجل . نزهتنا البحرية فى الليل ، فى ذلك الصيف ..

هو : والبحر أشبه ببساط من الفضة تحت ضوء القمر ..

هي : حقا ، كانت تلك رعونة منا لا نظير لها أيها العزيز !..

هو : وكنت أقول لك : ما أعجب اطمئناننا إلى هذا القارب الصغير الذى تستطيع موجة واحدة أن تدفعه إلى القاع .. وإنى أتمنى لو ثار البحر لأرى ماذا تصنعين ..

هي : وقد أجبتك بأنك إنما تريد بذلك أن تجرب خوفك أنت من تقلب حبى ، لأنك معى كراكب البحر ، لا يطمئن إلى حال !

هو : وقلت لى أيضا — يا عزيزتى — إنك لا تعلمين هل يعيش حبك لى إلى الغد أم لا ، فربما أحببتنى الآن ، ثم انتهى حبك بعد لحظة .. وربما أحببتنى بعد لحظة وكنت من قبل لا تحبيننى !.. فانظرى الآن — أيتها العزيزة — فى عينى واصدقينى : ألم تحل اللحظة التى تشعرين فيها بأنك لا تحبيننى ؟

هي : كن عاقلا !.. أنت نفسك قلت منذ قليل إنه لا إكراه فى

الحب ..

هو : ويحى ! ما أشقانى إذا كان حبك لى قد انتهى ، وحبى لك فى عنفوانه !.. ولكن اطمئنى ، فإن لهيب حبى محصور فى صدرى ، يتحكم فيه عقلى .. أما أنت فحبك يولد فجأة ، ويموت فجأة .. تتحكم فيه المصادفات والنزوات ، والسوانح والشوارد ، بغير حساب .. ولكن احذرى أن يحرق الحب قلبك .. إن هذا قد يحدث فى لحظة ، فإذا فؤادك رماد قبل أن تدركيه !.. إن الحب يكون — أحيانا — عاصفة تجتاح العقل وتنفلت منه لتدمر كل شىء ، إذ تنقض صواعقها على رأسك وبيتك ، ولا تلبث أن ترديك ..

وعندئذ يسمع من النافذة هدير عاصفة بعيدة ، ويختفى ضوء القمر ، ويومض البرق . فتغطى السيدة وجهها بيديها مذعورة ، ويفعل الرجل مثلها .. وتهدأ العاصفة فجأة ، وينساب ضوء القمر خلال النافذة ، فترفع السيدة يديها عن وجهها ، لتجد الرجل يحدق فيها بوعيد وغضب كما كان فى أول المنظر .

هى : قل شيئا !.. قل لى : لماذا تنظر هكذا فى وجهى طول الليل !.. تكلم !

ويختلج صوتها بالدموع ، ويظهر على وجهها الذعر والقلق .. أما هو فيبدو كمن يغالب انفعالا عاتيا .

هو : تعلمين أن حبك يملأ جوانحى ، وقد غيرنى هواك ، فلو

نظرت فى مرآة ما عرفت نفسى .. إن هذا الوجه الذى تنكرينه ليس وجهى ، وإنما هو وجه غريب غير الذى تعكسه أمامى المرآة .. إنه الوجه الذى أعطيتنيه أنت !.. هذا الوجه ــ الذى يخيفك ــ من صنعك أنت .. إنه أثرك فى حياتى ! أثر الالتواء والجريمة ! **إن المرآة هى الضمير ، وصورتى فيها هى صورتى أمـــام ضميرى .. صورة منكرة ! ولهذا لم أعد أجسر على النظر فى مرآة !.. وإنك تعلمين جيدا أن هذه السحنة البشعة قد لازمتنى منذ فعلت ــ فى النادى ــ ذلك الذى تعلمين جيدا .. منذ غششت أصحابى فى اللعب !** .. ولحسن حظى أنهم لم يفطنوا إلى أننى غششت وسرقت كى أتمكن من شراء ذلك العقد اللؤلؤى الفاخر !

هى : أواه ، كلا ! كلا ! لم أعد أريده .. إننى لم أقل سوى أنه يسرنى أن يكون لى هذا العقد .. كلمات قلتها بلا تفكير !

هو : بل قلتها لتذلينى .. لتشعرينى بأنك تستحقين عاشقا غنيا يستطيع أن يوفر لك ما تحلمين به من ملذات ورغبات باهظة !

هى : يا إلٰهى !.. إنما خطر لك هذا ، لأنك تعرف أية حياة كنت أحياها دائما قبل أن أعرفك ، وكيف كنت أعيش فى بذخ على الدوام !

هو : ولكنك كنت تعرفين تماما من أنا ، وما هى حدود

قدرتى ، عندما تقبلت حبى ، فما كنت غنيا فى يوم من الأيام ، ومع ذلك فقد أرهقت نفسى لكى أوفر لك — بكل الوسائل — مستوى حياة كذلك الذى كنت تعيشين فيه .. ولكن بدون مبالغات طبعا !

هى : وأنا أيضا ضحيت — باعترافك — كى أعيش معك ..

هو : نعم ، ضحيت بالنزوات الباهظة التكاليف فقط ..

هى : وهل هذا يبدو شيئا قليلا فى نظرك ؟.. هل يبدو لك أمرا طبيعيا ؟

هو : طبعا ، ما دمت تحبيننى !

هى : هذا ما كان يغيظنى منك .. أن ترى تضحياتى أمرا مفروغا منه !.. وهذا هو ما جعلنى أقف — عند مرورنا أمام واجهة متجر الجواهر — وأتعمد أن أغيظك فقط ، بإبداء الرغبة فى امتلاك هذا العقد ، كى أعرفك أى شىء حرمت نفسى منه بمعاشرتك !.. أجل ، تعمدت هذه القسوة ، والذنب ذنبك ! كان هدفى إيلامك فقط .. أما شراء العقد ، فقد كنت أعلم أنك لا تقدر عليه ، إلا إذا سرقت .. إلا إذا سرقته ، أو سرقت ثمنه من الغير !

هو : إذن فأنت لا تريدينه حقا ؟!

هى : كلا ، لا أريده منك .. لا أريده منك !

فتنقلب سحنته إلى الغضب الشديد ، وتحمر عيناه ، ويهجم عليها ،

فتظل تتراجع لتتحاشى إطباق يديه عليها .

هو : (**فى هياج**) . يا فاجرة !.. لا تريدينه منى لأنك حصلت عليه من سواى . لقد خنتنى فعلا ، أيتها الفاجرة .. لقد عدت إلى عشيقك السابق ، الذى رجع بأموال طائلة من (جاوة) .. لقد رأيته بنفسى فى الشارع .. إنه لم يعاشرك بعد علانية .. لم يحضر بعد ليعيش معك ، ولكنى رأيته ..

هى : آه ، لا تقتلنى !.. دعنى !.. ليس هذا صحيحا !.. دعنى !

وبعد مقاومة ، يتمكن من عنقها ، ويلقيها على الأريكة ، ويجثم على صدرها !

هو : ليس صحيحا ؟!.. لكنى رأيته يا فاجرة ! أنت تنتظرين تلك اللآلئ بعد أن طلبتها منه .. وفى تلك الأثناء ، كنت ألوث يدى بسرقة أصحابى فى النادى ، لأحصل على ثمن العقد .. لأرضى شهوتك ، وأشبع قسوتك !

* * *

وتستسلم أخيرا القبضته ، وتسكن حركتها كالميتة .. فقد خيل إليها — فى المنام — أنها ماتت مخنوقة بيد عشيقها الغيور .. وبعد لحظة قصيرة جدا ، تسمع طرقات عنيفة على الباب .. طرقات رهيبة كتلك التى تسمع فى الأحلام . **ويسود المسرح ظلام شامل ، يختفى أثناءه الرجل .. وفى الحال تبدأ الأنوار الطبيعية — أنوار الشمس — فى الدخول من النافذة . وتبدو الحجرة على حقيقتها .. حجرة جلوس « صالون » ..**

والسيدة الشابة وسنانة على الأريكة . ويتوالى الطرق الشديد على الباب فتتحرك السيدة فى مرقدها ، وعندئذ يخفت الطرق شيئا فشيئا ، حتى يصبح طرقا عاديا ، كالذى نسمعه فى اليقظة لا فى الحلم .. طرقا خفيفا .. مجرد نقرات بالأصابع على الباب . وتفتح السيدة عينيها ، وتنظر حولها برهة — وهى لا تزال فى غشية النعاس — ثم لا تلبث أن تصحو تمانا ، فتفرك عينيها ، وتمسح وجهها ، وكأنها تزيح آخر آثار الكابوس . ثم تنهض وتقف أمام المرآة فتسوى شعرها قليلا . وأخيرا ، تجيب الطارق قائلة: «ادخلى !». فتقبل الوصيفة حاملة صفحة صغيرة من الفضة، عليها علبة مخملية من علب المجوهرات ، مربعة الشكل ، ومعها بطاقة زيارة . فتشير السيدة إلى الوصيفة أن تضعها على « الكونصول » ، فتفعل الوصيفة ، ثم تنصرف مغلقة الباب خلفها .



وتجلس السيدة تستعيد حلمها بحذافيره ، ثم تنهض إلى العلبة فتفتحها ، وتخرج العقد الذى كانت تحلم به ، فتحيط به عنقها ، وتقف تتأمل صورتها فى المرآة ، وهى تلتفت إلى الباب لتتأكد من أنه مغلق ..

وكأنها تخشى أن يظهر فى الواقع بطل الحلم !.. وتتحسس العقد حول عنقها ، بأصابع مضطربة . ثم تتفرس فى بطاقة الزيارة .. وتعيد النظر إلى العقد ، ثم تغمض عينيها فى نشوة وتتنهد . ولا تلبث أن تخلع العقد فجأة ، فترده إلى الصندوق وتضع الصندوق والبطاقة داخل درج الكونصول ، وهى تنصت إلى خطوات تقترب من الباب . وعندما تسمع طرقا عليه تقول : « من ؟ ادخلى !» .. فتفد الخادمة حاملة بطاقة زيارة ، تلقى عليها السيدة نظرة ، ثم تقول : « أدخليه !» .

ويدخل الرجل .. نفس بطل الحلم الذى كان مرتديا ثياب السهرة ، ولكنه الآن فى ملابس عادية ، ووجهه هاش باسم فتستقبله بكل ترحاب . ويجلسان على الأريكة .

هو : أرى من عينيك أنك نمت ...

هى : لم أكن أريد أن أنام ، ولكنى استغرقت فى النوم فجأة ، بعد الغداء . (**تستدرك**) لا ، لا ، أبدا .. لم أنم إلا لحظة واحدة !

وتمر بيدها على عنقها ، وهى تتذكر كيف كانت تختنق بيديه فى الحلم .. ولكن وجهها لا يعكس أى أثر للكذب ، فهى تكذب بلا مجهود .. بالسليقة !.. وتحضر الخادم أدوات الشاى ، ثم تخرج ، فتنظر السيدة فى عينى صاحبها الذى يبدو شارد البال .

هى : ماذا بك ؟ أهناك ما يكدرك ؟

هو : آه ، كنت أريد أن أقدم لك مفاجأة سارة .

هى : أنت تقدم لى مفاجأة ؟ ولماذا تقولها بمثل هذا التحسر ؟

هو : لأننى لم أتمكن من تقديم هذه المفاجأة ، لأدخل السرور

عليك يا عزيزتى !

هى : عرفت ماذا كنت تريد أن تفاجأنى به !.. وسأقوله لك لتعرف أنه لم تعد بيننا مفاجآت أيها الحبيب .. (**وتطوقه بذراعيها ، وتلتصق به ، وتجعل خدها على خده وهى تكلمه بكل حنان**) أحقا إذن كنت تريد أن تتحفنى بذلك العقد النفيس يا حياتى ؟.. ولكنك وجدته قد بيع فعلا ، أليس كذلك ؟..

هو (**مجفلا فى دهشة**) : عجبا ، وكيف عرفت ؟

هى : ها ها !.. مررت مساء أمس أمام حانوت تاجر المجوهرات ، فلم أجد العقد فى نافذة المتجر .

هو : عجبا ، ولكنه كان هناك فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، فقد رأيته بعينى وأنا فى طريقى إلى النادى .

هى : لقد مررت أنا بعد ذلك .. فى السابعة .

هو : ولكن لماذا قالوا إلى الآن أنه بيع فى هذا الصباح ، وليس مساء أمس ؟

وتتصنع عدم الاكتراث ، ولا تضطرب وهى تتبين ضعف أكذوبتها .

هى : قالوا أى كلام ، ما دامت الصفقة قد تمت ، ولكن ألم يقولوا لك من الذى اشترى هذا العقد ؟

هو : بلى . قالوا لى ولكنى نسيت الاسم .. (**يضمها إليه ويعبث بشعرها**) لا بد أنك كنت تفكرين فى هذا العقد



كثيرا ، ما دمت قد ذهبت بالأمس أيضا لتريه . ولا بد أنك كنت تنتظرين منى أن أقدمه لك !

هى : أوه ، كلا .. أبدا! .. ولكن لا بد أنك ربحت فى اللعب أمس مبلغا كبيرا حتى أنك ذهبت فى الصباح لتشترى هذا العقد لى ..

هو : ربحت مبلغا طائلا . أتدرين لماذا ؟.. لأننى كنت أتحرق رغبة فى شراء هذا العقد لك يا حياتى !.. والآن عليك أن تختارى شيئا آخر جميلا .. جميلا جدا ، وثمينا ، لأقدمه إليك !

هى : أوه كلا .. مستحيل !

هو : بل يجب ، كى تزيلى عنى كدر فشلى فى الحصول على العقد لك ..

هى : ولكنى أؤكد لك أننى لم أكن راغبة حقا فى الحصول عليه

.. كانت نزوة عارضة .. ويكفينى سرورا أن كلمتى جعلتك تكسب ، كما أن عدم وجود العقد يحفظ عليك المبلغ . فلنترك هذا الموضوع .. أرجوك ! والآن هيا بنا نتناول الشاى .. (**وتتشاغل بصب الشاى فى قدحه**) .

هو (**كمن يحاول أن يتلمس موضوعا للكلام**) : هل علمت ؟.. قيل لى إنه عاد من (جاوة) ..

هى : من ؟.. (**تستدرك وقد عرفت من كان يعنى**) آه ، لقد سمعت !

هو : من الذى أنبأك بهذا ؟.. ومتى عرفت ؟

هى (**متظاهرة بعدم الاكتراث**) : منذ ليلتين .. لا أذكر تماما من الذى قال لى ..

هو : يبدو أنه عاد من هناك بثروة كبيرة ..

هى (**فى بساطة ، متعمدة أن تتجاهل الموضوع**) : هل تريد لبنا على الشاى ، أو ليمونا ؟

هو : بل لبنا .. شكرا لك !

وتنزل الستار ، وقد خسر ضمير المرأة المعركة .. لقد ناضل ضميرها نفاقها وخداعها فى الحلم ، ولكنها لم تكد تعود للواقع ، حتى استسلمت لصوت المصلحة ، ولبست قناع الرياء ، لتعيش به فى المجتمع ، كعهدها من قبل .


LA MAISON
DE LA NUIT
Par
THIERRY
MAULNIER
بيت الليل
قصة تمثيلية كبرى للروائي الفرنسي المعاصر "تيري مونييه".

مسرحية مثيرة ومؤلف شاب

● **إذا** كان أبلغ الكلام هو ما يناسب مقتضى الحال ، فإن أبلغ مسرحية تقدمها لنا باريس اليوم هي مسرحية « تييرى مونييه » الأخيرة : (بيت الليل) . فموضوع هذه القصة هو الموضوع الذى يسيطر على العالم بأسره .. هذا القلق الذى يملأ صفحات الجرائد صباحا ومساء ، ويصطدم به فكرك كلما نظرت فى حياتك وفى مشاكلك المادية والمعنوية : فاقتصادك وما تبلغه من الرخاء أو القلة ، وحريتك وما تجد من ضيق أو تفريج ، وراحتك وما تحس به من أمن أو اضطراب ، وعواطفك التى تطغى على مصالحك ، أو مصالحك التى تطغى على عواطفك ، ووضعك فى منتصف القرن العشرين بين الحق والواجب ، وما أصبحت عليه علاقتك بالمجتمع وعلاقتك بالفرد ، كل ذلك مرتبط بآثار الماضى الذى لم يكد ينقضى ، وعلائم المستقبل الذى يوشك أن يحل . وهذا ما تتناوله قصة « بيت الليل » . هى إذن قصة الفرد والجماعة ، وملحمة العقل والعاطفة ، كما يحددها موقف الإنسانية فى العصر الحاضر ..

هى قصة المرأة التى تخون زوجها حرصا على حياته ، والمواطن الصالح الذى يخاصم المواطن الصالح .. هى قصة المادة التى تنكر العاطفة ، والحياة التى تأبى أن تجمد فى قوالب المادة ..

وليست طرافة الموضوع وحدها أو مناسبته لمقتضى الحال هى التى تثير إعجابنا بهذه المسرحية . فهى بلا شك مسرحية قوية جريئة تعبر عن أزمة الضمير الإنسانى الراهنة . ولكنها فوق ذلك — من ناحية الصياغة الفنية — أثر متقن ممتاز ، قد ارتفع بها مؤلفها إلى درجات النقاء

والصفاء والتركيز التى تميز فى المسرح الفرنسى الكلاسيكى ، وبخاصة مسرح « راسين » .

فالمؤلف — وهو فى الخامسة والأربعين من عمره — أديب واسع الثقافة ، عميق الفكر ، مرهف الذوق .. تخرج عام ١٩٣١ فى مدرسة المعلمين العليا ، تلك التى أنجبت لفرنسا معظم أدبائها فى الأجيال الأخيرة . وسرعان ما أدار ظهره للتعليم وللجامعة ، وفرغ للتأليف والنقد الأدبى والمسرحى ، فقدم كتابا رائعا عن راسين ، واقتبس للتمثيل الحديث بضع مسرحيات من الأدب القديم ، وما زال يحرر الصفحة الأدبية بانتظام فى جريدة حية فتية هى صحيفة COMBAT وقد أخذ نجمة الآن يتألق فى سماء المسرح الفرنسى بجدارة .

بين تييرى مونييه وراسين

● **فهم** تييرى مونييه عبقرية راسين ، واستكنه كيف استطاع الكاتب الكبير أن يحقق المثل الأعلى للمأساة التى لم يكن بد من أن تجرى حوادثها فى يوم واحد من أربع وعشرين ساعة لا أكثر ، وفى حدود منظر واحد لا يتغير ، وأن تعرض موضوعا واحدا محكم العقدة واضح المدار . وقد أشاد برشاقة راسين فى حمل تلك القيود البلاغية العتيقة وتضييقها على نفسه ، حتى نقى فن الإنشاء المسرحى من شوائب الملابسات الكثيرة الغريبة ، وسخف المفاجآت غير المعقولة ، وفوضى الحركات التمثيلية التى تطرأ من الخارج على الأشخاص والمواقف . ولمس الناقد الشاب أن راسين حقق هذا المثل الأعلى للمأساة ، لأنه استجاب قبل كل شىء لسجيته الصادقة المرهفة التى استحوذ عليها نقاء الطبيعة وبساطة الحقيقة ، فكان

أن اتخذ من العواطف وتطورها فى القلب مواضيع مسرحياته ، وصور لنا النفس الإنسانية إزاء مصيرها عارية ، مجردة من ثياب الرياء والصنعة والتكلف ..

وكان القدماء يجدون موضوع مآسيهم بوجه عام فى اصطدام إرادة الإنسان بإرادة القدر . وقد نقل « تييرى مونييه » هذا الصراع من السماء إلى الأرض . أو مما وراء الطبيعة إلى الواقع ، ومن العصور الغابرة إلى العصر الحديث ، فعرض علينا فى هذه الرواية نزاع الفرد والجماعة ، وصراع النفس التى تنشد الحرية والسعادة ضد المذاهب التى تريد إلغاء هذه الحرية وهذه السعادة فى سبيل حرية الإنسانية جمعاء وسعادة الإنسانية جمعاء .. ولكنه صرح بأنه لا يكتب فى السياسة ولا يحب أن يخوض غمارها ، وإنما اختار بعض أبطاله من الشيوعيين وبعضهم الآخر من غير الشيوعيين لأن فى تعارض هؤلاء وأولئك مادة رائعة للكاتب المسرحى . فهناك أزمة وانقسام والتحام ، والمأساة المسرحية لا تعرض إلا أزمة وانقساما والتحاما . وإنه ليركز هذه الأزمة فى نفر قليل ، وفى زمن قصير لا يتجاوز الساعات الثلاث التى يستغرقها التمثيل . وإنه ليحاول أن ينأى بها عن الجدل العقلى — فالمناقشات الفلسفية والمنطقية تثير ملل النظارة وتقتل الحياة الجارية على خشبة المسرح — وهو يفلح فى أن يجعل العاطفة هى المسيطرة على أشخاص قصته من رجال ونساء . وكما كان راسين يتخذ موضوع مأساته من إحدى العواطف الكبيرة — كالحب أو الوفاء مثلا — تلتهم هذا البطل أو تلك البطلة ، فإن تييرى مونييه يتخذ موضوع « بيت الليل » من الشفقة — ويالها من عاطفة عميقة مستحكمة عاتية !

ليس فى هذه القصة الممتازة إذن — وإن أثارت سخط الشيوعيين — دعاية لأى مذهب سياسى ، فهى لا ترمى إلى إثبات فكرة أو رأى ، ولا تميل مع أهل اليمين ولا مع أهل اليسار ، وإنما تحاول أن تنفذ إلى أعماق النفس الإنسانية فى مأساتها الحالية ، كما صنع القدماء ، وبالأخص « راسين » .

١

● **نحن** فى داخل بيت واقع بين حدود دولتين من دول أوربا الوسطى ، فمن الشرق حدود جمهورية شعبية خاضعة لأوامر الحزب الأعلى ونواهية ، ومن الغرب حدود جمهورية حرة . ويبدو على أثاث القاعة وجدرانها آثار التلف الذى ألحقته الحرب بالمكان منذ وقت غير بعيد : كراسى بعضها سليم وبعضها مبقور ، ومائدة هى لوح من خشب فوق حاملين ، وصفائح « بنزين » فى ركن من الأركان ، وساعة عتيقة ثمينة قائمة بجوار أحد الجدران يشير عقرباها إلى الساعة التاسعة عند ارتفاع الستارة ، وتدور دورانها الطبيعى ، أى أنها ساعة مضبوطة تقرأ عليها الوقت الحقيقى . فإن أحداث الرواية تجرى أثناء الساعات الثلاث التى تستغرقها مشاهدتنا للتمثيل ، وتنقضى عندما ينتصف الليل .

ونرى فى بيت الليل هذا امرأة ورجلا وفتاة . وقد جلس الرجل والمرأة — وهما من نزلاء البيت العابرين — يلعبان الشطرنج ، ووقفت الفتاة — وهى ابنة البيت — لا تعمل شيئا بل تنتظر وتصيخ السمع ..

أما المرأة فقد جاوزت سن الشباب ، هلوع ، ثرثارة ، نعلم أنها « كونتة » من أشراف الدولة الشرقية ، قد أفلحت أخيرا فى الفرار -

وعبور الحدود للالتجاء إلى الغرب ، بعد أن نكل الفلاحون بزوجها « الكونت » الذى كان سيدهم الجبار ، وثأروا منه بأن خلعوا عليه جلد خنزير برى وأطلقوا عليه كلابا ضارية فمزقته إربا إربا ! وأما هذا الرجل الذى تلاعبه — ويدعى أدلر — فيصغرها سنا ولكنه يكبرها رصانة وجدا ، قليل الكلام ، لا يكشف اللثام عن شخصيته ، ولا يكاد يرحب بتوددها إليه وإقبالها عليه ، إقبال المرأة التى انصرف عنها الجميع ، على رجل قد يشفى نفسها مما تجد !

لكن الرجل قلق لتغيب رب البيت « كلوسوفسكى » الذى خرج تحت جنح الظلام والضباب للقاء بعض اللاجئين من الشرق وإعانتهم على عبور الحدود ، ونحن نشاطره هذا القلق إذ نسمع طلقات نارية ونباح كلاب خارج الدار ، وإذ نسمع أقوال الفتاة « ليديا » — وهى التى اعتادت كل ليلة قدوم نزلاء يفلتون فى عناء من رجال الحدود الشرقية — تشرح لأدلر ماذا يعنى إطلاق الرصاص وماذا يعنى نباح الكلاب ! وها هى ذى تهرع إلى المصباح فتطفئه ، فقد استنتجت أن اللاجئين قد اقتربوا من البيت ، وخير لهم ألا يسطع عليهم نور الدار فيظهرهم لرجال الحدود الذين يرمونهم بالرصاص من بعيد ، ويعلو فى الخارج صوت « كلوسوفسكى » كالمستغيث داعيا « ليديا » إلى التعجيل بفتح الباب . وفى الظلام يسرع اللاجئون ومضيفهم بالدخول . ثم يضاء النور فنرى القادمين وعليهم علائم الاضطراب والفزع ، لاهثين مروعين ، يستردون علائم الاضطراب والفزع ، يلهثون مرتاعين ..

ويسألهم كلوسوفسكى هل سلموا جميعا من طلقات الرصاص ؟

فيجيبه أحدهم — « هاجن » — بأنهم قد نجوا جميعا ، ولكن رفيقه ضل الطريق . بيد أن كلوسوفسكى يصب خمرا ويشرب غير عابىء بشىء . وتخرج ليديا للبحث عن الفتى الضال . وما أرخص الحياة على الحدود ! لن يكون ذلك الفتى المفقود آخر لاجىء يهلك ولا أول لاجىء ينجو . ففى كل ليلة ، ولا سيما فى الليالى الحالكة ، يزحف على بطونهم عبر الأسلاك الشائكة مئات من أهل تلك المناطق الشاسعة الممتدة من شواطئ البلطيق إلى جبال بوهيميا ، لاجئون من جميع الطبقات ، ضابط من الجيش القديم ، وأشراف وأغنياء ، وسجناء أفلحوا فى الفرار من معتقلاتهم ، وعمال ، وفلاحون طردوا من أراضيهم ، أولئك الذين يهربون من الجوع وأولئك الذين يهربون من الخوف .. **وكثيرا ما تكون بينهم عائلات مؤلفة من خمسة أفراد أو ستة ، قد لا يصل منهم إلى هذا البيت إلا اثنان أو ثلاثة ! ألم تبلغ الدار ذات ليلة امرأة تحمل على كتفها طفلها وقد كممت فاه بملفعتها لتكتم صياحا خليقا بأن يفشى أمرها ، وحين كشفت وجهه وجدت أنها أسرفت فى تكميمه وأنه قد فارق الحياة منذ ساعات طوال !؟**

وتدخل ليديا مقتادة « كراوس » ممسكة بيده . وإنها لتنظر إليه برهة قبل أن تترك يده ، ثم تنظر إليه نظرة أطول ، فهى لم تر وجهه فى الظلام المطبق خارج الدار . وتدعوه إلى الجلوس بجوار المدفأة ، ثم تسأله هل يرغب فى تناول شراب ما ، فيحسده رفيقه « هاجن » على هذه العناية التى لم يلقها سواه . وتحسد « الكونتة » تلك الفتاة الرقيقة على صيدها الثمين ، سائلة إياها فى خبث هل تصيب فتى وسيما كهذا كل ليلة ،

فتستدير « ليديا » وتخرج كالغزال النافر .

ويقص كلوسوفسكى قصتها ، فهى ليست ابنته ، وإنما هى صبية جرفها إلى ذلك المكان سيل من اللاجئين فى نهاية الحرب عام ١٩٤٥ . وكانت تلك الدار قد فقدت أهلها ، وكان هو قد فقد داره ، فالتقط الصبية المتخلفة من جمهور الهاربين ، كما التقط صفائح البنزين والساعة ، وأثث البيت بها جميعا . وكانت ليديا إذ ذاك فى نحو العاشرة من عمرها . لم تقل له قط ماذا رأت قبل أن تلقيها الأحداث إلى الحدود . لعلها رأت قريتها تحترق ، وأهلها يتلظون فى نار ذات لهيب .. ولا بد أنها رأت أشلاء متناثرة فى كل مكان ، وجنودا بواسل ينتهكون أمها ، وينتهكون عذارى القرية ولا حول لهن ولا قوة !

على أن مصير هذه الشرذمة الحالية من اللاجئين مصير غامض مجهول . فلئن كانوا قد اجتازوا الحدود الشرقية فإنهم لم ينتهوا بعد إلى أرض الجمهورية الغربية . والجمهورية الغربية قد أغلقت حدودها فى وجه الجميع منذ ثمان وأربعين ساعة ، ظنا منها أن جارتها الشرقية قد دست إليها عددا من الجواسيس ، أو عجزا منها عن إيواء هذه الحشود الجرارة من الناس . على هذه الشرذمة إذن أن تقضى الليلة فى هذا البيت ، وإن غدا لناظره قريب ..

ويصعد بهم كلوسوفسكى ليرشدهم إلى غرفهم ، ولكن « فرانز ورنر » و « كاترين » — ولا نعلم من أمر هذين اللاجئين شيئا بعد — يبقيان ليتحدثا فيما بينهما حديثا خاصا يكتمانه عن الآخرين . لم تكن كاترين تعلم إلى أين سيمضى بها فرانز ، فقد سألها منذ بضعة أيام أن تأتى

معه دون أن يستطيع مفاتحتها بسبب رحيله ولا بوجهته . ولقد وثقت به ثقة عمياء لأنها تحبه ، وإن كانت تعاتبه فى رفق على ما ساوره من قلق ومن شك فى إخلاصها ، إذ خطر له أنها قد تكون من جواسيس الحزب عليه ، غير أنه يؤكد لها حبه بما فعل وما يفعل . فهو يريد أن ينتشلها من عالم الغدر والنميمة والريبة ، من عالم يحذر فيه الزوج زوجته والأخ أخاه ، من عالم يتهم فيه الولد أباه بالخيانة على رؤوس الأشهاد ويدعو المحكمة إلى إعدامه !.. من عالم يشترى فيه المرء حياته — بل أياما معدودة من حياته — نظير هوانه وتحقير نفسه . ها هما يديران ظهريهما لذلك العيش الرهيب ويقبلان على الطمأنينة والقرار والسعادة ..

ولكن كاترين تشعر بأنها اقترفت ذنبا ، وبأنها تختلس السعادة اختلاسا . فإن للسعادة ثمنا لم تدفعه هي . ذلك أنها انتزعت فرانز من أحضان زوجته « ليز » ، لكنها تخشى أن يظل محتفظا بشىء من عاطفته الأولى .. فإن المرء لا يدير ظهره لماضيه كما يديره لحدود بلد من البلاد ! وإن ذكرى تلك الزوجة لخليقة بأن تلاحقهما وتفسد عليهما أصفى الأيام المقبلة . وهنا يعترف فرانز بأنه قد أمسى خالص النية مرتاح الضمير ، فقد عرض على امرأته أن ترحل معه — وإن كان ذلك تهورا منه — أفليس بين الزوج وزوجته ، مهما كانت الظروف ، واشجة عميقة من الألفة والتضامن والبؤس المشترك تجمعهما دائما كما تجمع السجينين المكبلين سلسلة واحدة يجرانها معا فى كل خطوة نحو الموت ؟

بيد أن « ليز » امرأة ضئيلة الفكر ، ضيقة الأفق ، لا تقدر كبار الأمور ، ومن طبيعتها أن تزحف لا أن تطير . بذلت كل جهدها وعنادها لتعيد

الوفاق بينه وبين رجال الحزب ، لا عن اقتناع منها بأن رجال الحزب على حق ، بل تلافيا للأخطار التى يتعرض لها زوجها الوزير ، وتجنبا للعقبات التى لا بد أن تقوم فى سبيله إذا هو جهر برأيه وأظهر استقلاله . ولو أنه أطاعها لظل قويا فى مركزه السياسى ، جبان النفس مستعبدا ذليلا فى واقع الأمر . وكان لإلحاحها عليه وحرصها على السلامة وتشبثها بالباطل أثر الداء المعدى ، فقد كان يدوى فى خاطره أحيانا صدى ما تلقنه ، ولم يكن له بد من الفرار لتوقى تلك العدوى . فتسأله كاترين :

— أفلم تحبها قط ؟

— أين يبدأ الحب وأين ينتهى ؟ إن الأمور ليست بهذه البساطة ، حتى بالنسبة لجسمين يتحدان . ومن ذا الذى يستطيع أن يشرح جميع ما يثور فى ضمة جسمين من الضيق إزاء الوحدة وإزاء الموت .. من الهزل ، ومن البغض .. من الحنان ومن الإهانة .. من الرحمة ومن الوجد ؟

— إذن فقد كانت جزءا منك . ألا ترى أننى فى حاجة إلى أن أحس بأنها عدو ، وأن أتوقع من ناحيتها الخطر علينا ، ولا سيما الآن ؟

فيأخذها بين ذراعيه ، ويحاولان أن ينسيا الزوجة المهجورة وأن يذكرا غرامهما . ويغمرهما البشر إذ يفكران فى أنهما مقبلان فى غدهما على أوربا ، فإن الدنيا الآن لهما ، من ألمانيا التى نضرت بمدنها الجديدة كالغابة استعادت خضرتها بعد حريق ، إلى باريس التى تمد قصورها الزاخرة تحت سماء الإخاء الإنسانى ، إلى إنجلترا التى تبرز صخور شطئانها من الضباب كذهب تاج يطفو على صفحة البحر ، إلى إيطاليا الغنية — رغم فقرها — بنور الشمس وبهرج المرمر وأغانى الفرح ..

ويفيقان من حلمهما اللذيذ على صوت امرأة تستغيث فى خارج الدار ، صوت سمعته « الكونتة » أولا ، ثم سمعه رب البيت فهبط يستطلع الأمر تصحبه ليديا . ويكره العاشقان أن يزدحم القوم من حولهما فيقطعوا عليهما نجواهما . ويصعدان إذن إلى غرفتهما . ولا يلبث كلوسوفسكى وليديا حتى يعودا من الخارج ومعهما امرأة فى حالة إعياء شديد ، لا تكاد تملك القدرة على الكلام . فيقدمان لها قدحا من الخمر تحسوه جرعة جرعة ويعود إليها صوابها . عجيب أمر هذه المرأة ! فإنها عجلة تريد أن تواصل طريقها فى الحال لتبلغ بيت كلوسوفسكى ! ويندهش الجميع إذ يرون من حديثها أنها قد عبرت الحدود الشرقية بسهولة إعجازية ، وأنها لم تدرك بعد أنها انتهت فعلا إلى بيت كلوسوفسكى ، وأن كلوسوفسكى هو هذا بعينه الذى يخاطبها . إذ ذاك تسأله هل أتى لديه الليلة رجل ؟ فيجيبها ساخرا : بل رجال كثيرون ! ولكنها تبحث عن رجل واحد ، رجل أسمر ، طويل القامة ، تصحبه فتاة . إنها تريد أن تراه ، وأن تراه بمفرده . فيصعد رب الدار ليدعوه . وتنصرف الكونتة مع أدلر ليستأنفا مباراة الشطرنج . ويقترب الرفيقان « هاجن » و « كراوس » ويحتلان صدر المسرح .

ويتضح لنا من حوار الرفيقين أنهما من أعضاء الحزب فى الدولة الشرقية ، وأنهما أقبلا للقيام بمهمة خاصة — وإن كانا لا يعرفان ماذا سيؤديان على وجه التحديد ! — على أن لكل منهما شخصيته وصفاته . فهاجن رجل يشعر بالحياة من حوله ، ويتكلم ، ويبتسم ، ويعلق على كل شيء تعليقات إنسانية صريحة . وأما كراوس ففتى ساكن صارم ،

لا يتكلم كثيرا ، لأنه لا يفكر كثيرا ، ولا يرى فى الحياة إلا طريقا واحدا مرسوما هو طريق الحزب الأعلى . يستبشر هاجن فى شىء من السخرية بأن رحلتهما الشاقة لا تخلو من ترفيه ، فها هى ذى امرأة ثالثة تفد إلى البيت . وهو وإن كان يعرف شخصيتها إلا أنه لا ينظر فيها لغير « المرأة » . على حين لا يرى فيها كراوس — وهو يجهل شخصيتها — إلا واحدة من الطبقة « البورجوازية » تبدو عليها التفاهة ، ولا يأسف على أن تلوذ هى وأمثالها بجمهورية الغرب ، إذ ينبغى أن يتخلص الشرق من تلك الطبقة على كل حال . ومعرفة هاجن بها معرفة جيدة . فقد سبق له أن راقصها مرتين أو ثلاثا بل وطارحها الغرام ، تنفيذا لأوامر صدرت إليه . فيسأله كراوس :

— من تكون ؟

— لا غناء فيها . إنى متأكد من أنك تفضل ليديا .

— ليديا ؟

— ليديا التى هدتك سواء السبيل فى الظلام والضباب والخطر .

— ألا تظن أننا نستطيع أن نتحدث فى جد الأمور ؟ أترى أن نظل محاصرين فى هذا المكان ؟

— وما العمل ؟ إذا نحن حاولنا أن نتسلل خلال الحدود الغربية تعرضنا لخطر الاعتقال وانكشفت حقيقتنا . أليس من الخير أن ننتظر وأن نختفى عن العيون ما استطعنا ؟ هل لديك تعليمات عن المهمة ؟

— كلا . اسم وعنوان فقط . وهناك سيقولون لى ماذا أفعل .

— وأنا مثلك ليست لدى معلومات أكثر .

— هذا أفضل . فنحن متى صرنا بين أهل الغرب أصبحنا على أرض العدو ، وخيرا فعل رؤساؤنا إذ حمونا من أنفسنا بكتمان سر المهمة عنا !
— نعم ، لا ثقة الآن فى أهل الثقة .
— وإنهم على حق ، فالقاعدة هى ألا تثق فى شخص قط . إنك تعتقد أنك موضع للثقة ، وإنى أعتقد أننى موضع للثقة ، ولكن قد يحدث أن نتورط كلانا فى الخطأ !
— أنا أحب على الأقل أن يستخدمونى حسب اختصاصى .
— حسب اختصاصك أم حسب ذوقك ؟ إن الجمهورية الشعبية لا تسألنا أن نصنع ما نحب ، بل أن نصنع ما يجب !
— **ألا تعتقد أن المرء يجيد ما يصنع إذا هو صنع ما يحب ؟**
— **ينبغى أن يصنع المرء أيضا ما لا يحب ، وأن يجيده نفس الإجادة !**
— أهذه هى أول مهمة تنهض بها فى الغرب ؟

فلا يجيب كراوس ، بل يتجه إلى النافذة ، ويحاول أن يغير مجرى الحديث . إلا أن هاجن يذكر ما اجتازا من هول عند عبورهما الحدود الشرقية ، ويبدى دهشته من أن الحزب لم ينبىء رجال الحدود لكى يفسحوا لهما الطريق ، بدلا من إطلاق الكلاب عليهما وإطلاق الرصاص .. ولكن كراوس يرى فى ذلك حكمة التمويه على أصحاب الحدود الغربية . ثم يدعو هاجن صاحبه إلى الشراب فيرفض :

— **إنى لا أشرب قط ، ما لم أتلق أمرا بالشرب .**
— ولا فى مناسبة غير اعتيادية ؟
— **ليس فى حياتى مناسبات غير اعتيادية .**

ــ سيأتى يوم مماتك !

ــ يوم مماتى يوم عادى .

ــ ليكن . أما أنا فأشرب ، أشرب نخب ليديا ..

ــ ما دام ذلك يلهيك .

ــ ... ونخب الرجل الخطير الذى يشرفنا بالنزول معنا الليلة فى هذا البيت المتواضع .

ــ أى رجل خطير ؟

ــ زوج الباكية الحسناء : « فرانز ورنر » !

ــ فرانز ورنر ؟ رئيس جماعة « الاشتراكيين الأحرار » ووزير الدولة ؟.. إنك تهزأ بى !

ــ لقد كسبت الرهان . فقد راهنت نفسى على أننى سأخرج كراوس من سكونه وأراه مضطربا .

ــ فرانز ورنر .. هارب إلى الخارج ؟

ــ فيما يبدو ..

ــ أما استطعت أن تنبئنى من قبل ؟

ــ أمامنا متسع من الوقت ، فإن الحدود الغربية مغلقة دوننا جميعا ..

ــ ينبغى يا هاجن ألا يعبر فرانز ورنر إلى الخارج !

٢

● **ما أقسى** لقاء المرأة المهجورة بزوجها الهاجر ! وأيهما الذى يقسو على الآخر ؟ لكل منهما نفسه ومشاعره وموقفه .. فكلاهما عادل فى جوره ، جائر فى عدله ! هذه « ليز » متولهة ملتاعة ، تنفث وجدها . تقول لفرانز إنها اقتحمت الأهوال لتلحق به ، وإن اجتراعها كأس الموت لأهون عليها من الرضا بفراقه !.. **لكن « فرانز » لا يلين لها ، وهو الذى لم يستطع طوال حياته الزوجية أن يميز حديثها الصادق من حديثها الكاذب ! فتقسم له أنها تقول الحق ، وتستغفره وتستعطفه .. ثم تسأله .. تكون تلك المرأة التى اصطحبها فى فراره ؟ وتجيب نفسها بأنها لن تكون سوى سكرتيرته فى الوزارة ، عشيقته كاترين ! وبماذا عساها تمتاز عليها ، هذه الكاترين ؟ أتمتاز عليها بالصبا والجمال ؟ ربما كانت أرق خلقا ، وألطف طبعا ، وأثبت جأشا . ولا بد أنها من النساء البارعات فى فن اجتذاب الرجال وتسييرهم وراءها .. ما الذى أعجبك فيها ولم أقدمه إليك ؟**

وتتدفق عبارات المرأة المكلومة كأنها تهذى ، وزوجها صامت يسمع ولا يقول لها شيئا .. حتى تستدرك قائلة :

ــ كلا ، بل كل ما هنالك هو أنها أشد منى ثقة بنفسها ، تستطيع أن تخفى جزعها ، وأن تكتم ألمها . قل لى ماذا أعجبك فيها ؟ فإنى لأستطيع

أن أصبح جديرة بك يا فرانز لو أنك رغبت فى معاونتى على ذلك قليلا . سأقرأ كتبك . إننى منذ وقت طويل أريد أن أقرأها . ولسوف تشرح لى الصعب منها .. إنى .. إنى سأحاول أن أشبهها !

فيستنكر زوجها منها أنها تمثل أمامه دور المرأة المهجورة ، مع أنها هى التى انصرفت عن حبه منذ أعوام ، وجهرت له بذلك ، وتمادت فى حماقتها فخانت عهده وارتمت فى أحضان غيره من الرجال ، وحالفت خصومه ، وأرغمته على الحد من حريته واستقلاله . أما هى فتعتذر عما سبق من التماسها لرجل سواه بحاجتها إذ ذاك إلى من يجعلها تحس بالحياة ، بينما كانت شواغله هو تستأثر به من دونها .. وتعتذر له عن معارضتها لآرائه بالخوف الذى كان يدفعها إلى استرضاء ذوى السطوة والبأس الشديد فى الدولة . ثم تخبره بأنها قد مهدت الأمور لانضمامه رسميا إلى الحزب ، وما عليه إلا أن يعود إلى الوطن . فيجيبها فى حزم :

ـــ عبثا تحاولين . لقد رحلت لأنه لا يوجد فى الشرق مكان لى ولا للآراء التى أدافع عنها وأريد الدفاع عنها .

ـــ آراؤك ! آه .. أتعرف أنت ما هى آراؤك ؟ ومن أين استقيتها ؟ هل هى خير من آراء الآخرين ؟ إنى أقر أن يترك المرء كل شىء فى سبيل مبادئه إذا لم يكن صاحب أسرة وصاحب بيت وصاحب مال ، إذا كان مجرد طالب أو عامل ، إذا لم يكن له فى دنياه شىء ! أما أنت !.. إنى على كل حال عالمة بآرائك ، فآراؤك هى تلك المرأة !

وينفجر سخط المرأة التى لا تفكر إلا بعاطفتها . ولو أن زوجها كان راحلا بمفرده لهان عليها الأمر . فهى لا تستطيع أن تحتمل وصاله لامرأة

سواها ، وترفض أن تعود أدراجها خشية أن يثأر منه قادة الحزب فى شخصها ! وهنا يعرض عليها فرانز أن تصحبه إلى الغرب ، ويعرض عليها ذلك أصالة عن نفسه ونيابة عن كاترين التى ستصبح زوجته ، فتثور ليز فى وجهه ، وتلجأ إلى استخدام سلاحها الأخير ، سلاح التهديد والوعيد ، وتنبئه بأنها أبلغت أمره فى خطاب عاجل أرسلته إلى صديق لها من رجال الحزب ، وأنه سيصبح تحت طائلة بوليس الدولة منذ أن يتسلم الرجل هذه الرسالة فى بريد الصباح . إذن ليس له من مفر ما دامت الحدود الغربية مغلقة دون الجميع ، ليس أمامه إلا سواد الليل يتخذ فيه قراره بالعودة . إذا كان يفضل العودة وزيرا على العودة معتقلا !

إذ ذاك يتخلى الزوج عن زوجته .. ينبذها ويطردها عنه ، فتتوارى .. وينادى كاترين فيخبرها بما حدث ، ويفضى إليها بأنه تأكد من أن كلوسوفسكى لديه تعليمات خاصة بشأن مرورهما بمجرد أن يبرز له بطاقة معينة . وتبدو ليديا ، فيسألها فى الحال أن تدعو رب البيت .

ويحضر كلوسوفسكى . ويطلعه فرانز على البطاقة ، فيخرج وريقة من جيبه ويقرأها ثم يقول :

ـــ ستكون التعليمات الخاصة بكما بين يدى الضابط الذى يتسلم حراسة مركز الحدود الغربية فى الساعة الحادية عشرة . لا جمرك ولا معسكر ، بل الفنادق فى انتظاركما . إنى واثق من أنكما لا تفضلان الاستمتاع بضيافتى أطول مما ينبغى ، موعدى معكما هنا فى الساعة الحادية عشرة إلا الربع لأخرج بكما إلى الحدود . واحرصا على ألا يعلم بالأمر أحد من النزلاء !

ويخرجون من القاعة بينما تدخل الكونتة ، وقد فرغت من مباراة الشطرنج ، تسأل ليديا أن تسقيها كأسا من شراب قوى . وتشرب ، وهى تسدى إلى الفتاة الرقيقة نصيحة امرأة مجربة : **إن « كراوس » فتى وسيم لا ينبغى أن تدعه « ليديا » يفلت من يديها . عليها أن تسعى إليه ، وأن تبدأه بالتحية ، وأن تخاطبه بعبارات الإطراء . فإن الحياء والتحشم مما يضيع أثمن الفرص . وليس أفضل من أسلوب إمبراطورة الروسيا الشهيرة « كاترين » ، تلك التى كانت كلما أعجبها فارس جميل استوقفته وقالت له « ترجل عن حصانك وتعال معى » ... ولكن ليديا تشك فى أن كراوس هو فتى أحلامها الذى تنتظره ، لأن ذلك الذى تنتظره سوف يقف ويترجل عن حصانة بجوارها دون أن تومىء إليه ، بل ولن يكون فتاها من أصحاب الجياد ، ولسوف يقف أمامها من تلقاء نفسه !** على أن الكونتة تلقى إليها حكمة الواقع الخبيث :

ـــ ليس الفتى الذى ننتظره هو الذى يتوقف ويسعى إلينا ، وإنما هو الذى يمر بنا دون أن نرمقه بنظرة . وأما ذلك الذى يتوقف فهو دائما فتى آخر غير الذى ننتظره ...

وتلمح كراوس مقبلا ، فتترك « ليديا » وحدها معه كى تطبق ما نصحتها به !.. لكن كراوس يجيل بصره فى القاعة ثم يعبرها خارجا ، فتدفع ليديا نفسها دفعا لتخاطبه ، سائلة إياه هل يبحث عن شخص معين ؟ فيجيبها بالإيجاب .. لكن هذا الشخص الذى يلتمسه ليس شخصها كما كانت تتمنى ، بل هو السيد كلوسوفسكى ، فتتطوع لخدمته فى البحث عن صاحب البيت ، دون أن تتحرك من مكانها ، فإنها فى الواقع

راغبة فى البقاء حيث هى — أى حيث هو !.. ويرى الفتى منها ذلك فيملأ فراغ الوقت بشكرها على هدايته السبيل فى الظلام حين ضل فى بداية الليلة . ثم يسود الصمت ، ويهم كراوس بالخروج ، فتسأله ليديا ما اسمه ، لأنها تحب أن تعلم من يكون ..

— وماذا عسى المرء أن يعلم عن شخص إذا عرف اسمه ؟

— منذ وقت قصير ، فى الظلام ، كنت أقودك ممسكة بيدك . وماذا عسى المرء أن يعلم عن شخص إذا أمسك بيده ؟ ومع ذلك ، فالمرء يجد الرضا أحيانا إذا أمسك يدا فى يده . وقد يكون الاسم كاليد ، يد هذا الشخص فى غيابه ..

رقة وطيبة وثقة غريرة ، يقابلها الجفاف والحذر والمكر ! هذه الفتاة تريد أن تفضى بذات نفسها ، فيستغل الفتى إقبالها عليه ، ويقف منها فى لحظة على سر انفتاح الحدود الغربية لفرانز وكاترين بعد ربع ساعة ! وإذ ذاك ينصرف عنها ويسرع إلى الاجتماع برفيقه ليتداولا ويحسما الموقف .

وبعد نقاش عسير يقرر الرفيقان أن يمضى كراوس لإخطار البوليس الشرقى ، على حين يمكث هاجن فى بيت الليل ليستبقى الوزير ريثما يحضر من يعتقله !

ويظهر كلوسوفسكى ، فيطرى هاجن أمانته ونزاهته ووفاءه بالوعد ، ملمحا إلى الموعد الوشيك الذى ضربه لرجل وامرأة من النزلاء سوف يصحبهما بعد دقائق ليجتازا الحدود الغربية . ثم يدعوه إلى المقامرة فى مباراة قصيرة لا تستغرق ثلاث دقائق ، مغريا إياه بكسب مبلغ ضخم

من المال . فيجيب كلوسوفسكى دعوته ويتبادل الرجلان إلقاء « الزهر » وإلقاء الكلام . ويدور حوارهما موازيا للعبهما ، سريعا مقتضبا محكما . كل رمية تشير إشارة مباشرة إلى درجة من أطوار الربح والخسارة إذا نظرنا إلى هذين الغريمين ، وترمز من ناحية أخرى إلى موقف من المواقف بين النجاة والهلاك إذا فكرنا فى مصير العاشقين الهاربين ! **ويضرب هاجن على جميع الأوتار ، فيوحى إلى كلوسوفسكى فى أثناء اللعب بأنه إنما يؤدى خيرا ومعروفا ويحمى رابطة الزواج المقدسة لو هو منع ذلك الزوج من الفرار ، ثم يمنحه فى النهاية مال الرهان منحا رغم نتيجة المباراة . ويفهم كلوسوفسكى أن ذلك المبلغ — من يد غريم جواد أتقن الغش فى القمار — ثمن لتمهله المنشود مدة عشرين دقيقة ، ويخرج صاحب الدار راضيا ليتوارى طوال الدقائق العشرين التالية ، بعد أن يرسل ليز إلى هاجن وفقا لطلبه .**

وتسعد ليز بهذا اللقاء المفاجىء ، وتظن أن هاجن لم يأت إلى ذلك المكان إلا لإنقاذها ، وأنه يخلص لها الحب . ويوحى إليها هاجن ، وهو يحصى الدقائق أمامها ، بأن البوليس يتعقبه هو أيضا ، ولكن النجاة مكتوبة لهما معا إذا هى أفلحت فى تعطيل فرانز وكاترين وسبقتهما فى صحبته إلى الحدود الغربية لاجتيازها بدلا منهما ، فإن رجل الحدود لا يعلم من يكون العابران وإنما عليه أن يفسح الطريق لرجل وامرأة معا . ويلقنها الدور الذى يجب أن تمثله فى الحال : فعند نزول فرانز وكاترين — أى بعد نصف دقيقة — تتعرض لهما شاكية ، باكية ، لاعنة ، متشبثة بزوجها ، فيتدخل إذ ذاك هاجن ليصلح ما بينهما وينصح الرجل بإعطاء مهلة لزوجته ، وعلى التو يلحق بها ويرحلان ..

٣

● **وهكذا** يدور المشهد التالى . وتتقن ليز التذلل والتضرع والانتحاب إلى درجة تشككنا فى كذبها وتثير عطف غريمتها كاترين عليها . ثم ينفرد هاجن بفرانز ، بينما تخرج ليز من أحد الأبواب ، وتخرج كاترين من باب آخر باحثة عن كلوسوفسكى .

ويدير الرجلان بينهما حوارا زاخرا بالمعانى ، تتلاطم فيه الفكرة بالفكرة ، ويصدم فيه العقل الشعور ، ونسمع خلاله صوت الضمير الإنسانى واضحا رغم هذا الاضطراب وهذا التنازع المحتدم . وقد يعيب الناقد على المؤلف إطالته لهذا المشهد ، فقد بلغت الرواية لحظاتها الحاسمة ، وهى لحظات قصيرة عصيبة متوترة لا تحتمل الإبطاء ولا تحتمل الجدل فى القضايا الاجتماعية والأخلاقية والفلسفية . ولكن المؤلف يريد فى هذه اللحظات الهامة الخطيرة أن يصب خلاصة موضوعه وأن يسجل رأيه ، أو بالأحرى آراء هذين الرجلين المتعارضين — وكل منهما يمثل إحدى الكتلتين اللتين ينقسم إليهما عالمنا اليوم — وأما من ناحية الصياغة المسرحية فلا غبار على الموقف ، ومن حق المؤلف أن يطنب فيه ، لاننا نعلم أن هاجن يرمى إلى تضييع الوقت وتفويت الفرصة على فرانز !

يدافع هاجن عن ليز ، ويبين لفرانز أن من واجب الزوج ألا يتخلى عن زوجته .. فيرتاب الأخير فى أمر العلاقة القائمة بين امرأته وبين هذا الرجل . ولكن هاجن ينفى الريبة :

ــ كلا ! لم تكن خليلتى ، وإن كنت قد قابلتها مرارا . ذلك أنك كنت منصرفا عنها ، وهيهات أن تتحمل المرأة الوحيدة عبء وجودها . لقد جذبني نحوها ، ما وجدت فيها من الحاجة إلى محضرى . إن النساء لا يحببن الرجال بقدر ما يحببن الشعور بأنهن شيء مذكور لدى الرجال . والرجال لا يحبون النساء بقدر ما يحبون الشعور بالسيطرة على النساء ... متى تم زواجك بها ؟

ــ منذ عشر سنين .

ــ إذا عاش المرء عشر سنين بجانب امرأة ، كان هو المسئول عما تؤول إليه !

ــ لا يا سيد هاجن ! كل مسئول عن نفسه ، كل حبيس جلده فى السعد وفى البؤس وفى الموت ، بل وفى الحب أيضا ، عبثا يحاولان أن يتضاما . ماذا عسانى أفعل من أجل ليز ؟

ــ أن تظل معها ، أن تقف بجانبها فى المحنة . لقد وشت بك زوجتك . وأنت تلقى عليها وزر فعلتها كما يعلق امرؤ فى رقبة الضحية حجرا ثقيلا ويقذف بها فى البحر . هل الإنسان بأكمله مجرد فعل صدر منه ؟ ألا تجد فى ليز أيضا تلك المرأة التى سكنت إليها ، وتأبطت ذراعك فى نزهاتك ، ومددت إليها يدك أثناء النزهة فى الريف لتعينها على عبور مجرى جارف ؟ ألا تجد فى ليز تلك المرأة التى حلمت بك فى غيابك عنها وسعدت بك بعض الليالى فى وجودك معها ، تلك المرأة التى كان النوم يحيل وجهها بجوارك إلى وجه طفلة بريئة . إن هذه الطفلة هى التى تريد أنت إلقاءها فى البحر !

ـــ بأى حق يؤاخذنى رجل من رجال الثورة على عدم اكترائى بامرأة ضمن ملايين من النساء ؟ حدثنى عما يعنيك . حدثنى عن الشعوب ، ما دمتم لا تتكلمون إلا باسم الشعوب . حدثنى عن هذا العالم الجديد الذى تشيدونه بالعنف والأمل ودم الضحايا ، ولا تحدثنى عن ليز .. وما قيمة امرأة لديكم ؟ ما قيمة ألف بل مائة ألف من البشر ؟ هل تنكر معسكرات الأشغال الشاقة ، تزجون فيها بمن تسمونهم المعــارضين والخونة والفاترين ؟ هل تنكر نفى القوم من أرضهم حتى أقفرت أقاليم كاملة ؟ هل تنكر الإرهاب الذى يدفع الآلاف من الرجال والنساء إلى عبور الحدود ، رغم تهديد أبراج المراقبة والأنوار الكشافة والمدافــع الرشاشة وكلاب الصيد التى دربتموها على قنص الإنسان ؟ إنكــم تدافعون عن الإنسانية ضد الناس . وإذا كان مبدؤك قتل الخصوم والمشتبه فيهم ، أيا كان عددهم ، وإلى أجل غير مسمى ، فكيف تسألنى أن أدرأ عن واحدة من البشر شيئا من الألم ؟ ألا ترى يا سيد هاجن أنك كمن يدعو إلها ولا يؤمن به ؟

ـــ أخطأت فهمنا يا سيد « ورنر » . إننا نقتل لأننا متأكدون من أننا على حق . ولسنا مؤمنين ، فالمؤمن لا يستطيع أن يفعل شيئا أكثر من أنه يؤمن . لقد كشفنا المعنى الذى يستطيع الإنسان أن يصوغ الدنيا فيه ، وإننا لمتأكدون من أننا كشفناه . لسنا نؤمن إيمانا ، بل نثبت إثباتا . وأود أن أعلم باسم أية حقيقة قاطعة أنت تضحى بليز . إنك تضحى بها فى سبيل سعادتك الشخصية الصغيرة ، أى فى سبيل لا شىء ... وأنت شخصيا لم تكن فى خطر مباشر ، فلماذا ترحل ؟

ــ لأنى أصبحت أرى التعاون بين حزبكم وبين الأحزاب الحرة مستحيلا .. لأن غايتكم خلاص الناس ووسيلتكم هوانهم !

ــ إن الدبابات أثناء الحرب تسحق زهر الحقول الغض ، وإنها لخسارة . وخسارة كذلك الأبدان البشرية . غير أننا لا نستطيع فى سبيلها شيئا . فالثورة ينبغى أن نصنعها من أجل الناس ، وفى الوقت نفسه بالناس وضد الناس . قتل وتقتيل . علينا ازدراء الناس إذا أردنا أن نحبهم حبا ينفعهم . وعلينا أن نهدم ، فلن نهدم العبودية ما لم نهدم سادة العبيد والعبيد الذين يحاربون فى صف السادة .

ــ ومع ذلك فقد انهدمت العبودية منذ نحو عشرين قرنا ، وهدمها حب لم يحمل سلاحا . ذاك لم يقتل سادة العبيد ، بل قتل العبودية فى ضمير السادة !

ــ ما دامت إحدى صور العبودية قائمة ، فذلك لأن الحب الذى تتحدث عنه لم يكن كافيا .

ــ ولكنه كان حبا . أتريدون الهدم فى سبيل البناء ؟ أولئك ملوك أشور الذين شيدوا الصروح والقلاع كانوا يبنون جدرانا يسدون بها أبواب الصوامع التى يلقون فى غياهبها سجناءهم أحياء . وكذلك تفعلون بضحاياكم فيما تنشئون من المصانع والمدن الجديدة . إنى لا أريد سدودكم ، لا أريد مصانعكم ، لا أريد مدنكم حيث آلاف من العيون مفتوحة إلى الأبد تتطلع إلى الأحياء من خلال جدران كثيفة ..

ــ وعيون ليز ، يا سيد ورنر ؟

ــ عيون ليز ؟

ـــ لسوف تلاحقك صورتها . سوف ترى جثة واقفة ، مفتوحة العينين ، داخل جدران بيتك الوثير فى فرنسا أو أمريكا . ولعل نظرات تلك الجثة لا تضايقك ، ولعلها لا تضايق صديقتك كاترين ..

ـــ إنك محام بارع يا سيد هاجن !

ـــ لكل شيء ثمنه . لا سعادة ولا حرية بلا ضحايا . فهلا أنصفتنا ، نحن رجال الحزب الذين لا نتقاضى الثمن المرقوم ؟ إننا لا نعمل من أجل أنفسنا . إننا نقتل ، نعم ، نقتل لأن لنا عالما نريد أن نحييه ، لأننا نريد أن نعطى لتاريخ الناس معنى مقبولا . أما أنت ، فلحسابك الخاص ، ولمنفعتك الفردية ، ودون كثير من تأنيب الضمير ـــ فيما يبدو ـــ ستقوم بعد بضع دقائق بنحر ذبيحتك البشرية . إلى اللقاء يا وزير الدولة ، أتمنى لك رحلة طيبة !

ـــ يا سيد هاجن ، أظن أننى سأفعل ما تسألنى .

ـــ ستفعل ؟

ـــ أظن أننى سأفعل ، وقد أجانب بذلك الصواب . هناك صوت آخر غير هذا الذى ندعوه صوت العقل ، صوت آخر نسمعه فى أعماقنا ، هو صوت سوانا ، صوت الآخرين ، نجاة غيرنا ونجاتنا ، انتصار غيرنا وربما هزيمتنا . وغريب أن تكون أنت الذى أسمعتنى فى نفسى هذا الصوت ، أنت الذى لا تسمع مثله .

وهنا تدق الساعة دقاتها الإحدى عشرة ، وكأنها تؤذن لأروع من حلول ساعة جديدة ، كأنها تعلن حلول المصير الأبدى !

ـــ هل وزنت الأمور يا سيد ورنر ؟

ـــ لو أنى وزنت الأمور لكنت الآن على غير هذه الأرض . لا أريد أن أزن شيئا ، أنت خاطبتنى بالعبارات التى من شأنها أن تجعلنى أتألم لألم ليز ، وها أنذا مشلول لا أنطلق .

ـــ ما زال أمامك الخيار ياسيد ورنر .

ثم ينادى هاجن « كلوسوفسكى » ليصحب ورنر ، فيدخل تتبعه كاترين . ويهم كلوسوفسكى باصطحاب فرانز وكاترين إلى الحدود الغربية تنفيذا للتعليمات الأولى ، فيدهشه أن الرجل لا يريد أن يتخلى عن زوجته . وتقترح كاترين ـــ وقد أنبأها كلوسوفسكى أن رسالة قد وردت أخيرا من مركز المراقبة الغربى تؤذن بانفتاح الحدود للجميع فى الساعة الثالثة صباحا ـــ أن يظلا الساعات الباقية لتتمكن ليز من العبور معهما . **ترى هل انتصر الإخلاص فى قلب الرفيق هاجن ؟ فها هو ذا ـــ وهو يعلم أن فى الانتظار هلاك هذين العاشقين ـــ يلح عليهما بمغادرة المكان فورا . لعله كذلك يكون قد أرضى ضميره من ناحية الحزب إذ أدى واجبه ، ومن ناحية ليز إذ ضمها إلى زوجها ، ومن ناحية أخوين له فى الإنسانية إذ يحثهما على النجاة !**

ولا تكاد كاترين تفيق من دهشتها لتحول هاجن عن موقفه حتى نسمع جلبة غريبة فى الخارج ، ويدخل رجال البوليس الشرقى يتبعهم كراوس ، ويستولى الرعب على جميع من فى البيت ، إلا أننا نستطيع أن نميز صوت ليز تستغيث بهاجن ، وصوت فرانز يستغفر كاترين !

٤

● يأمر كراوس باعتقال الجميع ، دون استثناء كلوسوفسكي وليديا المتهمين بتدبير فرار القوم . ويختلي برفيقه هاجن ، فيلاحظ هاجن أن صاحبه ممتقع الوجه جريح ، أصابه رصاص حراس الحدود . ويستنكر القرار العاجل الذى اتخذه رجال الدولة ، والذى آب الرفيق كراوس ليضطلع بتنفيذه ، القرار القاضى بإعدام جميع أهل البيت رميا بالرصاص ! نعم ، تلك أضمن وسيلة لكتمان سر التخلص من « ورنر » ، ولكن ما ذنب أولئك الذين ألقى بهم سوء الطالع إلى بيت كلوسوفسكي فى هذه الليلة ؟ هب أنهم متهمون بمحاولة الفرار ، وهب أن كلوسوفسكي يعينهم على ذلك ، فماذا اقترفت ليديا حتى تستحق الموت فى زهرة صباها ؟ كل جريمتها أنها أحبتك ، ووثقت بك ، وباحت لك بسر كان ينبغى أن تكتمه !

ـــ ولكن ما عسى ذلك أن يغير من الأمر ؟ إن ليديا الفتاة بريئة ، وإنها لتحبنى . ولو لم تكن تحبني ، ترى هل كنت أستطيع أن أقتلها وأنا أكثر اطمئنانا ؟ نعم ، هناك ليديا .. ولكن كم من فتيات مثلها لقين حتفهن لأنهن وقفن ضدنا ، أو لأن سوء الطالع أوقفهن فى ميدان الوغى حيث لا تميز القنابل من تصيب ومن تدع ، فكان أن قتلناهن ، لأن أمامنا ثلاثة أرباع الأرض نريد أن نخلصها من العبودية ، لأن فى ثلاثة أرباع الأرض عشرات

الملايين من أمثال « ليديا » يعدن كل يوم من المصنع منهكات القوى ليستقبلن أمسية مملقة من الأمل ، ويتركن أطفالهن للموت لأن امرأ لم يعلمهن كيف يعتنين بهم ، ويرقدن على الطوى فى طين آسيا الأصفر ، أو يقدمن أنفسهن على قارعة الطريق فى أوروبا لشهوة السادة الذى جعلوا منهن بغايا ذليلات . إننى ابن بغى من بلدة « ستيتين » يا هاجن !

ــ ومبادؤنا يا كراوس ؟ ومعنى جهادنا وواجبنا ، وجميع ما ينبغى أن نخلصه ، وجميع ما ينبغى أن نثأر له ، إنى أهيب بهذا كله كما تهيب به أنت .. مثل امرأة وحيدة فى البيت تنادى زوجها إذ تسمع اللصوص ، ولكن زوجها لا يأتى !

ــ إذا بقيت ليديا على قيد الحياة تكلمت ، وإذا تكلمت ...؟

ــ آه كلا ! دع هذا ! دع المنطق ! منطقنا الصلب الذى يخترق كالرصاص صدرا إنسانيا . أتظن أننى لا أرى تلك الرابطة المنطقية ؟ إنها لرابطة مقررة لا سبيل إلى إنكارها ودحضها . ومع ذلك فهى رابطة لا وجود لها ولا معنى لها .. انظر ! لقد انضممت إلى الحزب لأننى ضقت بمشهد الإنسانية منذ بدء تاريخها تصارع بؤسها المارد المجنون المعصوب العينين وهو يهوى يمينا وشمالا بفأس فى يده ! وها نحن قد صرنا جميعا ذلك المجنون نفسه ، نضرب على غير هدى ، وتحت الفأس توجد ليديا . ماذا تجدى ثورتنا ، وماذا تسدى من نفع إذا أصبح منطقنا باطلا ، وتجسم فى صورة ذلك الوجه الذى بلا عينين ، وجه الأعمى المتخبط الجامح الغضب ، وجه القدر ؟

ــ إذا كان القتال دائرا ، وكانت هذه الدار مرصدا يصوب منه العدو

النار على خطوطنا ، أكنت تتردد فى تدميرها ؟ هل كانت ليديا إذ ذاك تخطر لك على بال ؟ إننى أرثى لليديا كما ترثى أنت لها ..

— إن ليديا لا تثير رثائى بقدر ما تثير خوفى .. ترى كيف ستلقى إليها بالنبأ الفاجع ؟

ويقتاد هاجن رفيقه من كتفيه ويديره نحو الجدار ، فى المكان الذى اتخذته ليديا فى الفصل السابق . ويتخيل أن ليديا واقفة وجها لوجه أمام فتاها الأشقر ، تنظر إليه فى مقت ، وأن هذا الفتى ينظر إليها ثم يقول لها إنه آسف لأنه سيقتلها بعد هنيهة قصيرة !.. فيستنكر كراوس من رفيقه هاجن أن يمازحه هذا المزاح البشع . وفى تلك اللحظة تهبط ليديا الدرج وتقف وراءهما صامتة !

هاجن: إنك لا تريد أن تقول لها إنك ستقتلها . لماذا لا تريد أن تقول لها ذلك ؟

فتردد ليديا :

— لماذا لا تريد أن تقول لها ذلك ؟

فيلتفت كراوس مجفلا مضطربا ويقول للفتاة الهادئة أمامه :

— ماذا تفعلين هنا ؟ من أذن لك بالمجىء إلى هنا ؟

فترتاع ليديا وتتلعثم :

— قالوا لى إنك صاحب الأمر .. لم أصدق .. كنت أريد .. كنت أريد .

وتلوذ بالفرار من حيث أقبلت !

٥

● ولكن المؤلف يتبعها إلى غرفتها فى المشهد التالى ، حيث نراها ونسمع حوارها مع الكونتة . ويا له من حوار مؤثر : أحقا هذه هى آخر ليلة فى حياتها ؟ يخيل إليها أنها تحلم ، وأنها ترى فى حلمها شخصا يدنو منها ليقتلها دون أن تستطيع الهرب ولا الدفاع عن نفسها ، لأنها أسيرة الكرى !.. غير أنها تكفر بحلمها ، وتنكر أن يكون له مكان فى الواقع . ثم يخطر لها أنها دميمة ، وأنها لو كانت جميلة لاستطاعت أن تثنى الفتى عن قتلها . وذلك خاطر لم يطرأ على بالها قبل تلك الليلة !

ــ ينبغى أن أعرف : لو قد أتيح لى أن أعيش ، هل كان يهتم بى رجل من الرجال ؟ لا تكذبى أيتها الكونتة ! ما أنا إلا فتاة دميمة لم يكن لها فى حياتها أى أمل . فتاة دميمة ما كان ليحدث لها أى شىء ، تموت ميتة لا معنى لها بعد حياة قصيرة لا معنى لها ... أما أنت فقد كنت جميلة أيتها الكونتة ، وأحبك الرجال .. وستكتنفك جميع ذكرياتك فى لحظتك الأخيرة ، ولا تموتين وحيدة مثلى . أنا ليس لى ذكريات ، ولم يقع لى شىء .. لا بد أن أعرف هل كانت حياتى ستتصل على هذا المنوال ..؟

ــ إنك لجميلة ياليديا .. وإنك لصبية ...

وتأخذ المرأة رأس الفتاة الشقراء بين يديها فتزيح شعرها إلى الوراء قائلة لها :

— أظهرى وجهك ولا تختبئى وراء شعرك . إنك كالحيوانات الصغيرة النافرة التى تتسلل بحذاء الظلال . لكى تكونى جميلة ينبغى أن تؤمنى بأنك جميلة ، ينبغى أن تتقدمى إلى النور . وإننى لخليقة بأن أصنع منك فى عشر دقائق فتاة من أولئك اللواتى كن يخلبن رجال السفارات فى الحفلة الراقصة التى كانت تقيمها الرياسة فى فارسوفيا !

— جمليني أيتها الكونتة ! هلمى ! أسرعى ! فليس لدينا عشر دقائق كاملة . إننى أريد أن أكون جميلة . أريد أن أكون جميلة للمرة الأولى . إنك لا تفهمينني . أنا أيضا ، لساعة واحدة خلت ، لم أكن أفهم من الحياة شيئا . كنت أنتظر ، وكنت خائفة . كنت أتهيب الحياة . أما الآن فإنى لا أرهب شيئا منها . إنها لصافية شفافة حتى قاعها ..

وتلح الفتاة الرقيقة على المرأة المجربة فى أن تجملها . فتقترب الكونتة منها ، وتصفف لها شعرها ، وتفتح ثوبها فوق نحرها ليظهر جيدها ، وتلون وجنتيها بمسحة من مسحوقها الأحمر ، ثم تمنحها عقدها اللؤلؤى الثمين . وتمسك ليديا مرآة صغيرة فى يدها ، وتنظر إلى صورتها مليا ثم تقول :

— إنك جميلة ياليديا !

وتنفخ على الفور فى مرآتها فتغشى أنفاسها الندية صقال الزجاج اللامع ، وتقول لنفسها :

— نفخة واحدة تمحوك . ليس بين الحياة والموت إلا هذه النفخة !

ثم تجلو مرآتها وتطيل النظر فيها وتقول :

— وداعا أيتها الجميلة ليديا ..

وها هو ذا الشرطى فى معطفه الفضفاض ومشيته النظامية الثقيلة يدخل ويأمرهما بالخروج دون أن ينظر إليهما ، فقد حانت الساعة ! وترى ليديا فى هذا الرجل الجامد — هذا الإنسان الذى حولته النظم الاجتماعية إلى آلة صماء ، عديمة الشخصية ، تتحرك وتنفذ دون أن تشعر أو تفكر — ترى فيه رجلها الأول منذ أن تجملت ، وتريد أن تلمس أثر جمالها فى عينيه . فتدنو منه وتسأله فى سذاجة أن يسمح لها بأن تنظر فى مقلتيه . فيتحشم الشرطى قائلا :

— أيتها الرفيقة !

فتجيبه :

— إننى لست رفيقة . إننى ليديا . هذا الجسم الذى ألمسه من فوق هذا الثوب ، إنه ليديا ، إنه أنا ... أنا ، يالها من كلمة عجيبة !

وتظن الكونتة أن الفتاة فقدت صوابها ، فتحنو عليها .. ولكن ليديا تستأنف حديثها هذا الساذج الغرير الحكيم معا ، باسطة يدها للشرطى :

— هذه اليد ، إنها ليديا . انظر ، إننى أثنى وأبسط إصبعا ، وإصبعا آخر وإصبعا ثالثا . وأفتح يدى ، وأضمها . هذه ليديا . إنه لشىء عجيب أن أكون « أنا » ، شىء عجيب أن أكون حية !

ويختلط فى حديثها دلال الصبا ، والغزل الذى تتوق إليه ، والفزع من الموت الذى ينتظرها ! تأنس فى هذا الشرطى الذى سيطلق عليها الرصاص عما قليل رجلها الأول والأخير ، عاشقها ، فرصتها الوحيدة لأن تعرف الحياة والحب . تعرض عليه جيدها وقد أزاحت عنه شعرها سائلة إياه أن يصوب إليه رصاصة ، دون أن ينذرها بشىء قبل أن يفعل .



تعرض عليه جيدها فى استسلام الذبيحة البريئة ، وفى إغراء المرأة الفاتنة ، وتخاطبه بلغة الغرام :

— يا حبيبى ، هل أنا جميلة ؟

فيجيب الشرطى فى لهجته الصارمة :

— إنك جميلة .

— إننى جميلة ؟ فهل تحبنى ؟ هل تشتهينى ؟

— نعم !

فتضحك ثم تقول :

— هل تأخذنى بين ذراعيك إذا تجردت من ثيابى وأصبحت عارية ؟

— نعم .

— قبلنى !

فيتردد الشرطى ، ثم يقبلها . وتغمض الفتاة عينيها لتتذوق قبلته ،

أو لتغيب فى حلمها المفقود ، فها هى ذى أول قبلة على وجنتها من شفتى رجل ، وإن كان هذا الرجل هو الشرطى رقم ٢١٨ ، البالغ من العمر ثمانية وأربعين عاما . وتصمت قليلا ثم تقول له :

ــ إنك ستمضى إلى أيام من الحياة وسنين من الحياة . هلا اصطحبتنى معك ؟ فإنى أريد أن أعيش معك هذه الحياة التى تشبه الأبد .

ــ لا أستطيع ..

ــ لا تخش شيئا . إنى لا أريدك على أن تعصى أوامرك . خذ هذه المرآة الصغيرة . إننى أعطيك ليديا . فقد حبست فيها صورة ليديا . هذا الوميض الذى تمحوه نفخة ، ويقضى عليه وميض بندقيتك . هل تحفظها ؟ هل تحفظ الوجه الذى جملته ؟

فيجيب الشرطى وقد أخذه التأثر :

ــ إلى يوم مماتى .

ــ إلى يوم مماتك ؟ أنت أيضا سيجىء يوم تموت فيه ؟ ولكنه يوم بعيد ، ودونك قبله ملايين الأيام . إنك رجل خالد .. ينبغى أن نمضى الآن .

ــ ينبغى ..

وتتجه ليديا والكونتة نحو الباب ، بينما يظل الشرطى واقفا فى مكانه كالمشدوه ينتظر أن يفيق ، فتنبهه ليديا فى رفق :

ــ هيا بنا أيها الشرطى . تشجع !

وننتقل إلى غرفة أخرى من بيت الليل ، فنجد كاترين وفرانز واقفين متعانقين ، فَنِيا فى عناقهما ، وغابا عن كل ما حولهما فى نظرة واحدة

طويلة متصلة . إنهما لا يسمعان صوت ليز تخاطب زوجها ملهوفة مفجوعة مستيئسة ، تدعوه إليها ، وتقسم له أنها لم تطلب الشرطة ، وإنما سعت إلى الفرار معه ، ولا أدل على ذلك من أنهم قرروا إعدامها هى أيضا ! **ويتقارب فرانز وكاترين ، ويغمضان أعينهما كأنهما ينتظران شيئا . ولا يلبث فرانز حتى يترنح فتسنده كاترين دون أن تفتح عينيها ، كأنها قد أحست بذلك الخور فى جسمها هى . ثم يدخل كراوس وهاجن والضابط . وتجهد كاترين لحظة فى الاحتفاظ بفرانز متوكئا عليها ، ثم يهويان معا ، متعانقين دائما ، جامدين . لقد تجرعا من السم ما أخرجهما من الدنيا الضيقة** ! غير أن ليز ترتمى على الجثتين تحاول أن تفصلهما ، وتستسلم لليأس والقنوط إذ ترى نفسها وحيدة منبوذة . فهذا زوجها يموت على مشهد منها دون أن يشاطرها موته ! وتتعلل المرأة المشردة بالسراب ، تلوذ بهاجن ، وتناشده أن يمسك بها وألا يتخلى عنها ، فإنها فى حاجة إلى شخص يقف بجوارها عند إعدامها ، وما زال وهمها يصور لها أن هاجن معتقل مثلها ينتظره نفس المصير . تلتصق إذن بهاجن ، ويحاول الضابط أن ينتزعها ، فتصيح صيحة رهيبة : « لا ! » . وإذ يرى هاجن تعلقها به ، يذود عنها الضابط ، ويطيب خاطرها . ولكن الضابط يريد أن يؤدى واجبه ، فهو مسئول عن المعتقلين . وتفهم ليز من نقاش الرجال حولها أن هاجن هو الذى دبر اعتقالها ، ومع ذلك فهى لا تقوى على أن تتمثل نفسها الشريدة مطرودة من هذا الملاذ الأخير . ويصمت هاجن إزاء هذه المرأة التى تتضور من اللهفة والسخط والأسى ، ثم يقول :

ــ كفى . هلموا اعتقلونى !

فتعقد الدهشة ألسنة الجميع ، ولا يقطع الصمت إلا شهقات ليز ، ثم يستأنف هاجن حديثه :

ــ إننى متواطىء مع هذه المرأة . وها أنذا متلبس بالفرار معها من الجمهورية الشعبية إلى الخارج !

كراوس : هل جننت يا هاجن ؟

هاجن : لقد كذبت عليك حين قلت لك إننى سأحاول استبقاء ورنر وزوجته هنا حتى تعود . فقد كنت أريد أن أبعدك عنى لأتخلص من رقابتك ولأعبر الحدود مع ليز . ولكنك عدت سريعا . أتسمعيننى يا ليز ؟

تمسك ليز عن البكاء وترفع رأسها . إنها لا تفيق من مفاجأة إلا لتتلقفها مفاجأة أخرى . ولا تكاد من فرط دهشتها أن تصدق ما تسمع ، غير أن هاجن يقترب منها ، ويستغفرها معتذرا عن صمته بما ساوره من خوف منذ لحظة ، ويؤكد لها أنه معها مهما يحدث . فترتمى على صدره فى فيض من الشوق والامتنان !

كراوس : هاجن ! هلا شرحت لى ماذا تعنى ؟

هاجن : إننى معها . معها وعليكم .

ويجذب ليز ويخطو معها صوب الباب المؤدى نحو الغرب ، سائلا الضابط أن يعتقله . فيوجه الضابط إلى كراوس نظرة المستفهم ، ولا يملك الرفيق كراوس إلا أن يقول لرفيقه هاجن : « لك ما تريد » ، وللآخرين : « إنه سيقدم حسابا عن تصرفه هذا أمام محكمة الشعب » .

ويخرج الضابط للبحث عن المدعو أدلر واعتقاله ، بينما يقتاد الشرطة ليز إلى حيث الآخرون ينتظرون .. وينفرد كراوس بهاجن :

يستوضحه فى عتاب رقيق أولا لماذا يتحول ويرتد فى وسط المعركة ؟ **فيعترف هاجن ــ وهو من المجاهدين الأشداء ــ بأن فى نفس الإنسان شيئا أقوى من الإنسان ، هو هذا الشعور الذى يدفعه إلى الغوص فى الماء لإنقاذ طفل أخذ فى الغرق ، رغم علمه بأن التيار عنيف قاتل !** لكن كراوس يأخذ عليه إفراطه فى الشراب ، فلا يجيب الرفيق المرتد إلا بصب كأس من الخمر يجرعها بعد أن يرفض صاحبه أن يشرب مثله !

كراوس : إنك لم تحترس من تهكمك كما ينبغى . والرجل الذى يسخر من نفسه رجل قد تسرب إليه الشك ... لقد أصبحت غير أهل للثقة ..

هاجن : إذا كنت قد أصبحت غير أهل للثقة ، فلماذا أرسلونى للخارج ؟

ــ أرسلوك تحتى مراقبتى !

ــ أجل ! بمثابة اختبار لى ؟

ــ تقريبا ..

ــ ولمراقبتى اختاروا أحسن أصدقائى ؟

ــ لبعث الثقة فى نفسك .

ــ إنهم لم يسيئوا الاختيار ..

ــ لست متأكدا من ذلك .

ــ لماذا ؟

ــ أشاروا على بأن أعرضك لبعض المغريات . وأعتقد أننى حاولت على النقيض إبعادك عن العثرات !

ــ ولماذا ؟

ــ لأنى أحبك .

ــ وأنا أيضا كنت أحبك يا كراوس .

ويرفع كأسه ويشرب نخب صداقتهما القديمة ..

ــ هناك شيء أعجز عن فهمه يا هاجن ، ألا وهو أنك استطعت أن تحب هذه المرأة إلى درجة الارتداد والهلاك من أجلها !؟

ــ أنا ؟ أحب ليز ؟ إنك لمجنون !

ــ فما شروعك فى الفرار معها ؟

ــ فليتحول هذا النبيذ الغربى الممتاز إلى سم زعاف إذا كانت هذه الفكرة قد خطرت لى على بال !

ــ إذن فكل شيء ملفق ؟

ــ يقينا ... لقد قمت بواجبى كمجاهد أمين ، فاستخدمت هذه المرأة لاستبقاء ورنر هنا حتى عودتك . أتقنت العمل . ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه .

فهو لم يكن يتوقع مشهد هذا اليأس الخائر الذى لا سند له ، مشهد هذه المرأة المهملة المنبوذة التى اعتقدت لحظة أن شخصا يهتم بها ، ثم وجدت أنه خدعها وأسلمها إلى الموت وحيدة ضالة مدحورة ! لعلها لو قد استقبلت مصيرها رابطة الجأش لما لان لها قلبه . إنه على كل حال ليس بخائن ، وإن ظهر بمظهر الخائن أمام رجال الحزب . وحسبه ما يجد

من الرضا منذ آنس من هذه المرأة التعسة أنها ستموت فى كنفه سعيدة ، أسعد مما كانت طوال حياتها . وهل من شأن الشفقة أن تقف عند حد ؟ إذا تألم المرء ، قد يستطيع أن يتدبر ألمه مع نفسه كما يروق له ، ولكن إذا تألم سوانا ، طفلا كان أم حيوانا ، هل نستطيع أن نحد من عطفنا عليه ؟ إن الشفقة لتملك أمر من تمسه حتى لا تدع له أضيق حيز للتملص من وطئها . وقد يتسرب الوهن أو الجبن لحظة إلى النفس المخلصة فى جهادها ، فتدفعه وتتغلب عليه وتستأنف جهادها بعزيمتها المعهودة .. أما الشفقة فلا راد لها من قوة الشكيمة وحزم الإرادة . ليس هاجن جبانا ، وإنما هو لا يستطيع أن يقاوم نظرة ليز ولا نظرة ليديا فى شقوتهما . إذن لقد أصبح غير صالح للخدمة ! ورفيقه يذكره بأن الطريق أمام الحزب مازال طريقا طويلا شاقا ولا بد من أن تضرجه الدماء ، لا بد من القسوة حتى يشيد النظام الجديد عالما ليس للشفقة فيه مكان ولا نفع ..

هاجن : ليس لآلام الدنيا آخر يا كراوس . لن تنتهى شقوة البشر قبل أن تنتهى كربة آخر الأحياء على ظهر الأرض ، وهو يحتضر وحيدا وليس أمامه إلا وجه الموت ..

وماذا عسى أن يصنع ذلك الرفيق برفيقه ؟ يعرض عليه أن يسرع فى الهرب وأن ترديه أثناء محاولته الفرار رصاصة يطلقها عليه أحد رجال الحدود ، فهو لن يحاكم محاكمة علنية لو عاد موفور العافية ، لأن الحزب يريد أن يكتم عن الملأ تلك القصة . يرفض هاجن هذا العرض فى شمم الإنسان الذى يشعر بكرامة نفسه ، وفى إباء المجاهد الباسل الأمين الذى

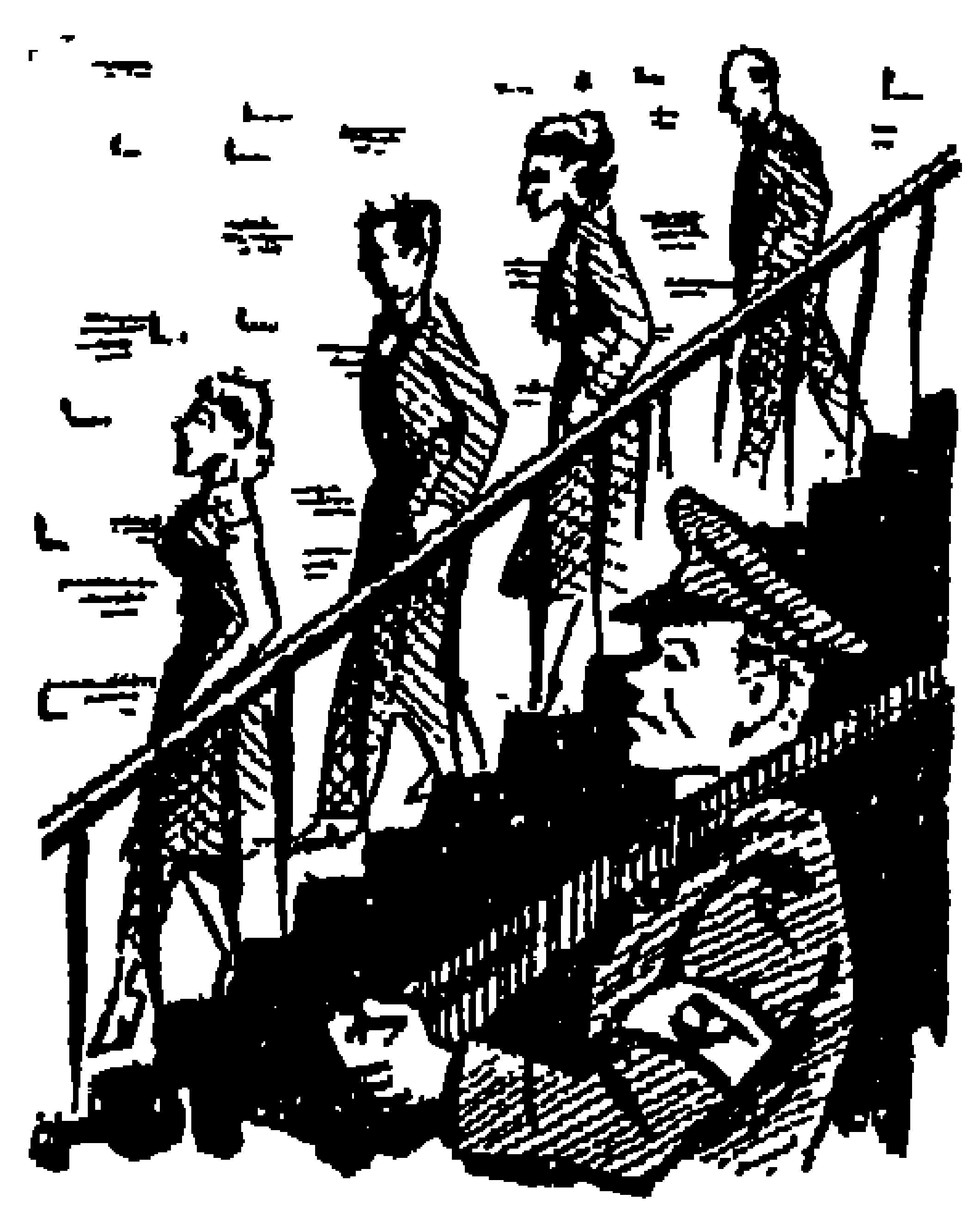
يحرص على أن يؤدى حسابا عن أمانته ، وأن يعترف بخطئه إذا كان قد أخطأ !.. ويفترقان . عزيز على كراوس أن يودع صديقه ورفيق جهاده وداعا أبديا . ولكن هاجن يحذره من أن يلين ، وأن تتسرب إلى نفسه العنيدة أشعة الشفقة فتصهرها وتفسد عليه أمره ! ينظر كل منهما فى عينى صاحبه ، ويكتفى هاجن بأن يضع يده على كتف كراوس ثم ينأى عنه ، بينما يظل هذا الأخير فى مكانه جامدا . ويسأله هاجن أن يأذن له بمشاهدة إعدام النزلاء ، وبأن يقف بجوار ليز حتى لحظة مصرعها ، كى تعتقد أنه سيموت معها ! ويهم بالخروج ، إلا أنه يعود سائلا :

— كراوس . أتعدم ليديا أيضا ؟

— ليديا أيضا .

ويبقى كراوس وحده . ثم يدخل الضابط وقد قبض على « أدلر » الذى كان يحاول الفرار ، لا إلى الغرب كما توقع الجميع بل إلى الشرق ! ذلك أنه قسيس أراد أن يدلف إلى الدولة الشرقية ليحمل إلى أهلها المضطربين المتألمين — وما أكثر من يساقون هناك إلى الموت ! — رسالة حب الله لهم ، وحاجتهم إلى أن يشفق بعضهم على بعض . ونسمع فى حوار الرجلين هذين الصوتين المتناقضين : صوت المذهب المادى الذى يحاول أن يحل مشكلة الإنسان بإلغاء وجود الله ، وصوت الإيمان الوثيق الذى لا يرى فى غير الرحمة والتضحية مخرجا للإنسان من مأساته القائمة . وما من شك فى أن المؤلف قد أقحم شخصية هذا القسيس فى الرواية ، حيث لا يشترك فى توجيهها ولا يضطلع بدور فعال ، لمجرد النقاش الفكرى الذى يثيره الموضوع ، والذى لا تكتمل عناصره

إلا إذا تجادل متحدث باسم المادية مع متحدث باسم الله . وهذا النزاع بين المادة والروح قد أصبح بعد الحرب الأخيرة أهم ما يشغل الكتاب فى بحثهم المتصل للإنسانية الضالة المتخبطة عن حل يعصمها من التردى فى هوة الهلاك التى انفغرت دونها . وما أكثر ما يظهر القساوسة على المسرح الفرنسى فى هذه الأيام ! ولعل تييرى مونييه متأثر فى هذا الجزء من روايته ببطل من أبطال الكاتب الإنجليزى المعاصر « جراهام جرين » رأيناه أخيرا يحيا حياة غريبة على خشبة المسرح وفى أشرطة السينما تحت عنوانى « القوة والمجد » و « قد مات الله » !



ومهما يكن من شىء فإن خاتمة « بيت الليل » خاتمة قوية مؤثرة : فهؤلاء هم أهل الدار يهبطون السلم فى حراسة الشرطة ويتجهون إلى الباب الخارجى . وتنشد ليديا وهى تسير فى وداعة ، هذه الأبيات الرقيقة .. وكأنها ترثى نفسها أو تعاتب القدر :

لقد لبست ثوبى المتألق كالشمس ولبست السماء ثوبها القاتم كالخريف أهى السماء التى تخطىء أم أنا ؟ هل يأتى ؟ هل يأتى حبيبى ؟

وينهرها الضابط بعنف فتصمت . وتخيم الرهبة على الجميع . ويخرج الواحد تلو الآخر من هذا الباب الـذى لن يعود منه إلى الأبد . أما كراوس فيظل فى مكانه جامدا دائما . ثم تسقط الستارة .

من كنوز التراث

حلمى مراد

- رسالة الغفران
- الأمير
- جوكندا
- العقد الاجتماعى
- ألكسندر ديماس
- مروحة الليدى وندرمير
- سالومى
- مدرسة الأرامل
- عندما تخون المرأة
- الأسلحة والإنسان
- مذكرات كازانوفا

رقم الإيداع ٣٥٧٦ / ٩٢
الترقيم الدولى 5 - 0730 - 11 - 977

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

حلمي مراد يقدم كنوز كتب التراث

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٣٠٠ قرش